# الجزء الثالث عشر

وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ، إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥٣)

## بسم الله الرحمن الرحيم

### المعنى الجملى

هذه الآية الكريمة من تتمة إقرار امرأة العزيز كما اختاره أبو حيان في البحر، ويؤيده عطفه على ما قبله، وقد جعلت أول الجزء الثالث عشر، لأن تقسيم القرآن إلى الأجزاء قد لوحظ فيه مقادير الكلم العددى دون المعانى .

### الإيضاح

( وما أبرئ نفسى ) أى وما أبرئ نفسى من دعوى عدم خيانتى إياه بالغيب بعد أن وجهت إليه اقتراف الذنب وقلت ما جزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن يسجن أو عذاب أليم ، وأودعته السجن وعرف الناس خاصتهم وعامتهم ذلك ، وكأنها بذلك تريد التنصل مما كان .

obeikandi.com

( إن النفس لأمارة بالسوء ) أي إن النفس البشرية لكثيرة الأمر بعمل السوء لما فيها من دواعي الشهوات الجسمية والأهواء النفسية بما ركب فيها من القوى والآلات لتحصيل اللذات ، وما يوسوس الشيطان ويزينه لها من النزغات ، ومن ذلك أن حرضت زوجي على سجن يوسف وقد كان ذلك مما يسوءه ، فالعفيف النزيه لا يرضى أن يُزَنَّ بالريبة كما يسوء زوجي إذ لا يرضى أن يكون عرضه مضغة للأفواه وحديث الناس في أنديتهم وأسمارهم .

( إلا ما رحم ربي ) أي إلا نفسا رحمها ربي فصرف عنها السوء والفحشاء بعصمته كنفس يوسف عليه السلام .

ثم علل ما سلف بقوله :

( إن ربي غفور رحيم ) أي إن ربي عظيم المغفرة ، فيغفر ما يعتري النفوس بمقتضى طباعها ، إذ ركب فيها الشهوات الجسمية والأهواء النفسية .

---

## تولية يوسف رئيسا لحكومة مصر

### وما وقع لإخوته معه حينئذ

وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي، فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (٥٤) قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (٥٥)

## المعنى الجملي

بعد انتهاء التحقيق في أمر النسوة وظهور براءة يوسف من كل سوء ، طلب الملك إحضاره إليه من السجن بعد أن وفّى له بما اشترط لمجيئه – فلما جاءه وسمع كلامه فهم من فحوى حديثه ، ومن أمانته على مال العزيز وعرضه وحسن تصرفه ، ومن

سيرته الحسنة فى السجن ، ومن علمه وفهمه فى تأويله للرؤيا ، ومن حرصه على إظهار شرفه وكرامته فى مسألة النسوة ما دل على أنه أهل لأن يرفع إلى أعلى المراتب ويولى أسمى المناصب ، وذلك هو ما فعله الملك لحصافة رأيه وبصره بأقدار الرجال ، ولم يصرفه عن ذلك كونه غريبا أو فقيرا أو مملوكا ، كما تشير إلى ذلك الآيتان .

## الإيضاح

( وقال الملك ائتونى به أستخلصه لنفسى ) أى وقال الملك أحضروه من السجن إلىّ بعد أن وفيت له بما طلب : أجعله خالصا لى وموضع ثقتى فلا يشاركه أحد فى إدارة ملكى ولا تكون وساطة بينه وبينى . وقد جرت عادة الملوك أن يجعلوا الأشياء النفيسة خالصة لهم دون غيرهم ، قال ابن عباس : إن الرسول أتاه فقال ألق عنك ثياب السجن والبس ثيابا جُددا وقم إلى الملك فدعا له أهل السجن ودعا لهم وهو يومئذ ابن ثلاثين سنة ، فلما أتاه رآه غلاما حدثا ، فقال أيعلم هذا رؤياى ولم يعلمها السحرة والكهنة وأقعده قدامه ، وقال لا تخف وألبسه طوقا من ذهب وثياب حرير وأعطاه دابة مسرجة مزينة كدابة الملك وضرب الطبل بمصر إن يوسف خليفة الملك.

( فلما كلمه قال : إنك اليوم لدينا مكين أمين ) أى فأتوه به فلما كلمه وسمع ما أجاب به ، قال له إنك لدينا ذو مكانة سامية ، ومنزلة عالية ، وأمانة تامة ، فأنت غير منازع فى تصرفك ، ولا متهم فى أمانتك .

وفى هذا إيماء إلى أن الحوار بين المتخاطبين يظهر معارف الإنسان وأخلاقه وآدابه وجميع شمائله فيقدره من يعرف أقدار الرجال ويرتهم بفضائلهم ومزاياهم .

والظاهر أن الملك كلمه مشافهة بدون ترجمان ، لأن يوسف كان قد عرف اللغة المصرية من العزيز وامرأته بمحادثته إياهما ومع حاشية الوزير من حين قدم مصر ، ومن محادثته صاحبيه فى السجن .

وقد تكون اللغة التى كان يتكلم بها يوسف لغة جده إبراهيم وأولاده وحفدته

وكانوا من العرب القحطانيين ثم تفرعت من هذه العربية الإسماعيلية فالمصرية والعبرانية والسريانية ، وكان ملوك مصر وكبراء حكامها فى ذلك العهد من أولئك العرب وهم الذين يسمون بالرعاة ( الهكسوس ) .

ويقول المؤرخون إن ملك مصر فى ذلك العهد كان يسمى الوليد بن الريان .

( قال اجعلنى على خزائن الأرض ) الخزائن واحدها خزانة وهى مايخزن فيه غلات الأرض ونحوها ، أى قال ولّنى خزائن أرضك كلها وأكن مشرفا عليها لأنقذ البلاد من مجاعة مقبلة عليها تهلك الحرث والنسل .

ثم ذكر سبب طلبه فقال :

( إنى حفيظ عليم ) أى إنى شديد الحفظ لما يخزن فيها فلا يضيع منه شىء أو يوضع فى غير موضعه ، عليم بوجوه تصريفه وحسن الانتفاع به .

وقد طلب إدارة الأمور المالية لأن سياسة الملك وتنمية العمران وإقامة العدل فيه تتوقف عليها ، وقد كان مضطرا إلى تزكية نفسه فى ذلك حتى يثق به الملك ويركن إليه فى تولية هذه المهامّ .

وما أضاع كثيرا من الممالك الشرقية فى القرون الأخيرة إلا الجهل والتقصير فى النظام المالى وتدبير الثروة وحفظها فى الدولة والأمة .

روى أن الملك لما كلمه وقص عليه رؤياه وعبرها له ، قال ما ترى أيها الصديق ؟ قال تزرع فى سنى الخصب زرعا كثيرا وتبنى الخزائن وتجمع فيها الطعام بقصبه وسنبله فإنه أبقى له ، ويكون القصب علفا للدواب ، فإذا جاءت السنون العجاف بعت ذلك فيحصل لك مال عظيم ، فقال الملك ومن لى بهذا ومن يجمعه ويبيعه لى ويكفينى العمل فيه ؟ قال : اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم .

---

وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٥٧)

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه إجابة الملك له بأنه أصبح لديه مكينا أمينا وطلب يوسف منه أن يجعله على خزائن الأرض يصرّفها على حسب مايرى من التدبير والنظام والدراية والإحكام .

ذكر هنا أنه أجابه إلى مطلبه وجعله وزيرا فى دولته يتصرف فى شئونها لحسن تدبيره وثاقب رأيه ، وذلك جار على سنن الله فى خلقه ، فلن ينال الرياسات العليا والمناصب الرفيعة إلا من يؤتيه الله من المواهب ما يجعله قادرا على ضبط الأعمال وإقامة النظام وحسن السياسة والكياسة فى تصريف الأمور .

## الإيضاح

( وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض يتبوأ منها حيث يشاء ) أى ومثل هذا التمكين الذى سلف ذكر أسبابه ومقدماته، فقد ذكرنا أن إخوة يوسف لو لم يحسدوه ما ألقوه فى غيابة الجب ، ولو لم يلقوه لما وصل إلى عزيز مصر ، ولو لم يعتقد العزيز بفراسته أمانته وصدقه لما أمنه على بيته وماله وأهله ، ولو لم تراوده امرأة العزيز عن نفسه ويستعصم لما ظهرت نزاهته وعرف أمرها ، ولو لم تخب فى كيدها وكيد صواحباتها ما ألقى فى السجن لإخفاء هذا الأمر ، ولو لم يسجن لما عرفه ساقى الملك وعرف علمه وفضله وصدقه فى تعبير الرؤيا ، ولو لم يعرف ذلك منه الساقى ما عرفه ملك مصر ولم يجعله على خزائن الأرض ، فما من حلقة من هذه السلسلة إلا كانت متممة لما بعدها ، وبإذن الله كانت سببا للوصول إلى ما يليها ، فكلها فى بدايتها كانت شرا وخسرا وفى عاقبتها فوزا ونصراً مبينا ومهدت للتمكين لدى ملك مصر .

فكما مكن له فى ذلك مكن له فى أرض مصر وقد جىء به مملوكا فأصبح مالكا ذا نفوذ وأمر ونهى لاينازعه منازع فيا يراه ويختاره وصار الملك يصدر عن رأيه ولا يعترض عليه فيا يرى بما أعده الله تعالى له من تحلية بالصبر واحتمال الشدائد ، والأمانة والعفة وحسن التصرف والتدبير للأمور .

( نصيب برحمتنا من نشاء ) أى نخص برحمتنا من إعطاء الملك والرياسة والغنى والصحة ونحوها من نشاء من عبادنا بمقتضى ما وضعنا من السنن فى الأسباب الكسبية مع موافقتها للأحداث الكونية ومراعاة النظم الاجتماعية والفضائل الخلقية

( ولا نضيع أجر المحسنين ) أى ولا نضيع أجر من أحسنوا فى أعمالهم بشكران هذه النعم ، بل نأجرهم عليها سعادة وهناءة ، وقد بذلنا تلك النعم لمن يطلبها متى أتى الأمور من أبوابها وسار على مقتضى السنن التى وضعناها .

أما من يسيئون التصرف فيها فتصيبهم المنغصات ، وتتوالى عليهم المكدرات ، فالمسرفون لايلبثون أن ينالهم الفقر والعُدْم ، والظالمون يثيرون أضغان المظلومين ، وذوو الخيلاء والبطر يكونون محتقرين ، وقلما يصيب المحسنين الشاكرين من ذلك شىء ، وإن نالهم منه شىء يكن أهون عليهم وهم عليه أصبر .

وفى الآية إيماء إلى أنه ما أضاع صبر يوسف على أذى إخوته وصبره على الحبس بسبب امرأة العزيز بل كان جزاؤه ما مكن له فى الأرض ولدى ملك مصر .

( ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون ) أى إن أجر الآخرة وهو نعيمها يكون للمؤمنين المتقين ، وذلك خير لهم من أجر الدنيا لأهلها وإن بلغوا سلطان الملك ، فإن ما أعده لأولئك ليتضاءل أمامه كل مافى الدنيا من مال وجاه وزينة ولاشبهة فى أن من يجمعون بين السعادتين يكون فضل الله عليهم أعظم ، إذا هم أعطوا حقها من الشكر وقاموا بما يجب عليهم نحو خالقهم من طاعته وترك معصيته.

روى الشيخان عن أبى صالح عن أبى هريرة قال : « قال فقراء المهاجرين للنبى صلى الله عليه وسلم يارسول الله ذهب أهل الدثور (واحدها دثر بالفتح: المال الكثير) بالدرجات العلى والنعيم المقيم ، قال ما ذاك ؟ قالوا يصلون كما نصلى ويصومون كما نصوم ويتصدقون كما نتصدق ويعتقون ولا نعتق ، قال صلى الله عليه وسلم : أفلا أعلمكم شيئا تدركون به من سبقكم وتسبقون به من بعدكم ؟ ولا يكون أحد أفضل منكم ، إلا من صنع مثلكم ؟ قالوا بلى يارسول الله قال : تسبحون وتكبرون وتحمدون

الله دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين مرة » قال أبو صالح : فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا ففعلوا مثله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء » .

---

وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (٥٨) وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (٥٩) فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ (٦٠) قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ (٦١) وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٦٢)

## شرح المفردات

المعرفة والعرفان : معرفة الشيء بتفكر فى أثره ، وضده الإنكار ، وجهزهم : أى أوقر ركائبهم بما جاءوا لأجله ، وجهاز السفر : أهبته وما يحتاج إليه فى قطع المسافة ، ومثله جهاز الميت والعروس (بالكسر والفتح وبهما قرئ) أوفى الشيء : جعله وافيا تاما ، المنزلين : أى المضيفين للضيوف ، نراود : أى نخادع ونستميل برفق ، لفاعلون: أى لقادرون على ذلك ، لفتيانه : أى غلمانه الكيالين ، بضاعتهم : أى التى اشتروا بها الطعام وكانت نعالا وأدما ، والبضاعة : المال الذى يستعمل للتجارة ، والرحال : واحدها رحل : وهو مايوضع على ظهر الدابة وفوقه متاع الراكب وغيره ، وانقلبوا : أى رجعوا .

## المعنى الجملى

جاء فى سفر التكوين من التوراة أن يوسف عليه السلام حين ولى الوزارة

طفق يُعدّ العُدة ويأخذ الأهبة لتنفيذ التدابير التى يقى بها البلاد من خطر المجاعة التى جاءت فى تأويل رؤياه للملك ، وكان من ذلك أن بنى الأهراء العظيمة وخزن فيها الحبوب التى استكثر منها مدة سنى الخصب السبع الأولى ، فلما جاءت السبع الشداد وعم القحط مصر وغيرها من الأقطار القريبة منها ولاسيما أقربها إليها وهى فلسطين من بلاد الشام ، واشتهر لدى أهلها ما فعله يوسف فى مصر من حسن التدبير حتى كثرت فيها الغلال وأصبح يبيع ما زاد على حاجة أهلها للأقطار المجاورة لها أمر يعقوب عليه السلام أولاده أن يرحلوا إلى مصر ويأخذوا معهم مايوجد فى بلادهم من بضاعة ونقد فضة ويشتروا به قمحا لأن المجاعة أوشكت أن تقضى عليهم فنفذوا ماأراد وكان بينهم وبين يوسف ماقصه الله علينا فى كتابه الكريم .

## الإيضاح

( وجاء إخوة يوسف ) ممتارين حين أصاب أرض كنعان وبلاد الشام ماأصاب مصر ، وكان قد حل بآل يعقوب ماحل بأهلها فدعا أبناءه ماعدا بنيامين فقال لهم يابنىّ قد بلغنى أن بمصر ملكا صالحا يبيع الطعام فتجهزوا إليه واقصدوه واشتروا منه ماتحتاجون إليه فخرجوا حتى قدموا مصر .

( فدخلوا عليه ) وهو فى مجلس ولايته ، لأن أمر الميرة وشراء الغلال كان بيده ورهن أمره .

( فعرفهم ) حين دخلوا عليه بلا تردد إذ كان عددهم وشكلهم وزيهم لايزال عالقا بخياله لتشوئه بينهم ولاسيما ماقاساه منهم فى آخر عهده بهم ، وربما كان عمال يوسف وعبيده قد سألوهم عن أمرهم قبل أن يدخلوهم عليه وأخبروه بأوصافهم والبيئة التى رحلوا منها .

( وهم له منكرون ) لنسيانهم له بطول العهد ، وتغير شكله بدخوله فى سن الكهولة ، ولما كان عليه من عظمة الملك وزيه وشارته ، وما كان من حاجتهم إلى بره وعطفه .

فكل أولئك مما يحول دون التثبت من معارف وجهه ، ولا سيما أنهم كانوا يظنون أنه قد هلك أو طوّحت به طوائح الأيام ، ولو كانوا قد فطنوا لبعض ملامحه وتذكروه بها لربما عدوه مما يتشابه فيه بعض الناس ببعض العادات ، وبخاصة أنه لم يكن يدور بخلدهم أن أخاهم قد وصل إلى ذلك المركز السامى .

( ولما جهزهم بجهازهم ) أى ولما أوقر ركائبهم بما جاءوا لأجله من الميرة والطعام وجهزهم بما سوى ذلك من الزاد و بما يحتاج إليه المسافرون عادة على قدر طاقتهم و بيئتهم .

( قال ائتونى بأخ لكم من أبيكم ) هو شقيقه بنيامين ، وسبب ذلك أن يوسف ما كان يعطى لأحد إلا حمل بعير ، وقد كان إخوته عشرة فأعطاهم عشرة أحمال فقالوا إن لنا أبا شيخا كبيرا وأخا آخر بقى معه ، وإن أباهم لتقدم السن به وشدة حزنه لايستطيع الحضور ، وإن أخاهم بقى فى خدمة أبيه ، ولابد لهما من شىء من الطعام فجهز لهما بعيرين آخرين ، وقال لهم جيئونى بأخيكم لأراه .

وفى سفر التكوين أنه كان استنبأهم عن أنفسهم متنكرا لهم ، إذ عرفهم ولم يعرفوه واتهمهم بأنهم جواسيس جاءوا ليروا عورة البلاد ، فأنكروا ذلك وأخبروه خبرهم ، فقالوا نحن عبيدك اثنا عشر أخا ونحن بنو رجل واحد فى أرض كنعان ، وهذا الصغير عند أبينا اليوم ، والواحد مفقود ، فقال لهم يوسف ، ذلك ما كلمتكم به قائلا ، جواسيس أنتم ، بهذا تُمتَحنون، وحياة فرعون لاتخرجون من هنا إلا بمجىء أخيكم الصغير إلى هنا . فدعوا رهينا عندى وأتونى بأخيكم من أبيكم ، فاقترعوا فأصابت القرعة شمعون فخلفوه عنده. ثم أمر يوسف أن تملأ أوعيتهم قمحا وترد فضة كل واحد إلى عدله وأن يعطوا زادا للطريق ، ففعل لهم هكذا اهـ .

(ألا ترون أنى أوفى الكيل) أى أتمه ولا أبخسه وأزيدكم حمل بعير لأجل أخيكم.

( وأنا خير المنزلين ) أى وأنا على هذا خير المضيفين لضيوفه ، فقد أحسن ضيافتهم وجهزهم بالزاد الكافى لهم مدة سفرهم ومن هذا يعلم أن رواية اتهامهم بالتجسس ضعيفة على كونها لاتليق بمن دون الصديق النبى وهو يعلم بطلانها ، إلا أن تكون ذريعة لغرض صحيح كاتهامهم بالسرقة .

( فإن لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى ) أى فإذا عدتم تمتارون لأهالكم ولم يكن معكم منعتم من الكيل فى بلادى فضلا عن إيفائه وإكماله الذى كان لكم بأمرى .

( ولا تقربون ) أى ولا تقربونى بدخول بلادى فضلا عن الإحسان فى الإنزال والضيافة .

وفى ذلك إيماء إلى أنهم كانوا على نية الامتيار مرة بعد أخرى ، وأن ذلك كان معلوما له عليه السلام ، والظاهر أن مافعله معهم كان بوحى ، وإلا فالبر كان يقتضى أن يبادر إلى أبيه ويستدعيه ، ولعل الله أراد تكميل أجر يعقوب فى محنته ، وهو الفعال لما يريد فى خلقه.

( قالوا سنراود عنه أباه ) أى سنجتهد ونحتال على أن ننزعه من يده ونحوّله عن إرادته فى إبقائه عنده إلى إرادتنا وإرادتك ، ونقنعه بإرساله معنا كما تحب .

( وإنا لفاعلون ) ذلك لامحالة ولا نتوانى فيه .

( وقال لفتيانه ) أى غلمانه الكيالين .

( اجعلوا بضاعتهم فى رحالهم ) أى اجعلوا بضاعتهم التى اشتروا بها الطعام وكانت نعالا وجلودا فى أمتعتهم من حيث لايشعرون .

( لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم ) أى لكى يعرفوا لنا حق إكرامهم بإعادتها إليهم وجعل ما أعطيناهم من الغلة مجانا بلا ثمن ، إذا هم رجعوا إلى أهلهم وفتحوا متاعهم فوجدوها فيه .

ثم علل معرفتهم للبضاعة المردودة إليهم بقوله :

( لعلهم يرجعون ) إلينا طمعا فى برنا ، فإن العوز إلى القوت من أقوى الدواعى إلى الرجوع .

---

فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ ، وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٦٣) قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ

إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ ؟ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٦٤)

# الإيضاح

( فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا منع منا الكيل ) أى قالوا حين رجوعهم إلى أبيهم إن عزيز مصر أصدر أمره بمنع الكيل لنا فى المستقبل إن لم نحضر معنا أخانا بنيامين فقال : ( إن لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى ) .

( فأرسل معنا أخانا نكتل ) من الطعام ما نحتاج إليه بقدر عددنا ونكون قد وفينا له بما شرط علينا ، والعرب تقول كلت له الطعام إذا أعطيته ، واكتلت منه وعليه إذا أخذت منه أو توليت الكيل بنفسك .

( وإنا له لحافظون ) فى ذهابه وإيابه ، فلا يناله مكروه تخافه ، وكأنهم كانوا يعتقدون أن أباهم لابد أن يرفض إجابتهم خوفا عليه من أن يحدث له مثل ما حدث ليوسف بدافع الحسد من قبل ، فكان جوابه لهم :

( قال هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل ) أى هل أنتم صانعون به إلا كما صنعتم بأخيه من قبل ، تغيبونه عنى وتحولون بينى وبينه ، وقد قلتم مثل هذا الكلام فى يوسف إذ ضمنتم حفظه وقلتم ( وإنا له لحافظون ) ثم خنتم فى عهدكم وكذبتم فأضعتم يوسف ، فأنتم لا يوثق لكم بوعد ولا يطمأن منكم إلى عهد ، فما أشبه الليلة بالبارحة .

( فالله خير حافظا ) أى فأنا أتوكل على الله فى حفظ بنيامين لا على حفظكم .

( وهو أرحم الراحمين ) فأرجو أن يرحمنى بحفظه ولا يبتلينى بفقده كما ابتلانى من قبل بفقد أخيه يوسف ، فرحمته واسعة ، وفضله عظيم .

وهذا كما ترى ، فيه ميل منه إلى الإذن والإرسال لما رأى من شدة الحاجة إلى ذلك ، ولأنه لم ير فيما بينهم وبين بنيامين من الحقد والحسد مثل ما شاهد بينهم وبين يوسف ، وفيه من التوكل على الله ما لا خفاء فيه .

وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي ؟ هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ (٦٥) قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ ، فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٦٦)

## شرح المفردات

المتاع : ماينتفع به والمراد هنا وعاء الطعام ، والبضاعة : ثمن ما كانوا أعطوه من الطعام ، ونمير أهلنا : أى نجلب لهم الميرة ( بالكسر ) وهى الطعام يجلبه الإنسان من بلد إلى بلد ، كيل بعير : أى حمل جمل ، فكيل بمعنى مكيل ، ويسير : أى قليل لايكثر على سخائه كما جاء فى قوله : « وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيراً » أو سهل لاعسر فيه كما فى قوله : « وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيراً » والموثق : العهد الموثق ، إلا أن يحاط بكم : أى إلا أن تغلبوا على أمركم أو إلا أن تهلكوا ، فإن من يحيط به العدو يهلك غالبا ، وكيل : أى مطلع رقيب ، فإن الموكل بالأمر يراقبه ويحفظه .

## الإيضاح

( ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم ) أى ولما فتحوا أوعية طعامهم وجدوا فيها ما كان أعطوه من بضاعة ونقد ثمنا لما اشتروه من الطعام ، إذ أن يوسف أمر فتيانه أن يضعوها فى رحالهم وهم لايعلمون ذلك .

( قالوا يا أبانا مانبغى ؟ ) أى ماذا نطلب وراء ما وصفنا لك من إحسان الملك إلينا وكرمه الذى يوجب علينا امتثال أمره ومراجعته فى الحوائج ، وقد كانوا حدّثوا أباهم بذلك على ما روى أنهم قالوا له إنا قدمنا على خير رجل وقد أنزلنا خير منزل

وأكرم وفادتنا ولو كان رجلا من آل يعقوب ما أكرمنا كرامته ، ثم استدلوا على هذا بقولهم :

ثم أكدوا صدق كلامهم بقولهم :

( هذه بضاعتنا ردت إلينا ) أى إن ماتقول فى وصفه ومزيد إحسانه ولطفه لنا من شواهد الحال ماهو دليل عليه ، فهذه بضاعتنا ردت إلينا تفضلا منه بعد أن أثقل كواهلنا بعظيم مننه وجميل عطفه .

وهم بهذا يومئون إلى أن ذلك كاف فى وجوب امتثال أمره والالتجاء إليه طلبا للمزيد من فضله ، فكل ماجئنا به على غلائه وعظم قيمته هو هبة منه وتفضل علينا.

( ونمير أهلنا ) أى فنحن ننتفع ببضاعتنا ونمير أهلنا بما نجلبه لهم من الميرة من مصر بلا ثمن .

( ونحفظ أخانا ) بعنايتنا جميعا به ، على أننا لانخشى شيئا من المخاوف التى تغلبنا عليه .

( ونزداد كيل بعير ) أى ونزيد على ما نأخذ لأنفسنا حمل جمل يكال لأخينا، لأن يوسف كان يكيل لكل رجل حمل بعير اقتصادا فى الطعام ، فإذا حضر بنيامين زاد حملا له .

( ذلك كيل يسير ) أى إن حمل البعير كيل سهل لاعسر فيه على ذلك المحسن الجواد، أو هو قليل لا يكثر على سخائه وجوده ولا يشق عليه .

( قال لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقا من الله ) أى لن أرسله معكم حتى تعطونى عهدا موثقا بتأكيده بإشهاد الله عليه بالقسم به .

( لتأتننى به إلا أن يحاط بكم ) أى حتى تحلفوا بالله لترجعنّ به على كل حال تعرض لكم ، إلا أن تهلكوا فيكون ذلك عندى عذرا على نحو ماجاء فى قوله : « وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ » وقوله : « وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ » وقد يكون المعنى ــ إلا أن تغلبوا على أمركم وتقهروا فلا تقدرون على الرجوع .

( فلما آتوه موثقهم قال الله على مانقول وكيل ) أى فلما أعطوه العهد الموثق الذى اشترطه عليهم ، قال : الله شهيد على ما قاله واشترطه ، وعلى ما أجابوه به : أى إنه سبحانه رقيب عليه وأمره موكول إليه ، فهو الذى يوفق للوفاء بالوعد والصدق فيما أعطى من عهد .

---

وَقَالَ يَا بَنِيَّ لاَ تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ ، إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (٦٧) وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا ، وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ (٦٨)

## الإيضاح

( وقال يابنى لاتدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة ) أى وقال لهم يابنى لاتدخلوا على هـذا الوزير الكريم من باب واحد من أبواب الوصول إليه ، بل ادخلوا عليه متفرقين من أبواب متعددة ، لتروا بأعينكم مايكون من تأثير كل طائفة منكم فى نفسه وما يظهر على أسارير وجهه وحركات عينيه حين رؤية شقيقه يدخل عليه مع طائفته إذ لايعلم هذا إذا دخلوا عليه كلهم جماعة واحدة .

وقد يكون المراد لا تدخلوا عليه مجتمعين فيحسدكم الحاسدون أو يكيد لكم الكائدون ، فإذا حل بكم مكروه خشيت أن يصيبكم جميعا .

( وما أغنى عنكم من الله من شىء ) أى وما أدفع عنكم بتدبيرى من قضاء الله شيئا ، إذ لا يغنى حذر من قدر ، وهو لا يريد إلغاء الحذر بتاتا فإنه تعالى أمر به وقال « خُذُوا حِذْرَكُمْ » بل يريد أن هذا التدبير إنما هو تشبث بالأسباب

العادية التى لا تؤثر إلا بإذن الله تعالى ، وأن ذلك ليس بدافع للقدر بل هو استعانة بالله تعالى وهرب منه إليه .

( إن الحكم إلا لله ) أى ما الحكم فى تدبير العالم ونظم الأسباب والمسببات إلا لله وحده .

( عليه توكلت ) أى عليه دون غيره ، ودون حولى وقوتى اعتمدت فى كل ما آتى وأذر .

وفى هذا إيماء إلى أن الأخذ فى الأسباب ومراعاة اتباعها لا ينافى التوكل، وقد جاء فى الخبر « اعقلها وتوكل » .

( وعليه فليتوكل المتوكلون ) لا على أمثالهم من المخلوقين ولا على أنفسهم .

فعلى كل مؤمن أن يتخذ لكل أمر يقدم على عمله العدّة ويهيئ من الأسباب ما يوصل إليه على قدر طاقته ، ثم بعد ذلك يكل أمر النجاح فيه إلى الله ويطلب منه التوفيق والمعونة فى إنجازه ، فقد يكون من الأسباب ما يخفى عليه أو ما لا تصل إليه يده .

( ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ) وهى الأبواب المتفرقة .

( ما كان يغنى عنهم من الله من شىء ) أى ما كان دخولهم على هذا النهج يدفع عنهم شيئا من المكروه الذى يحول دون رجوعهم ببنيامين ، ونسبتهم إلى السرقة ، وتضاعف المصيبة على يعقوب .

( إلا حاجة فى نفس يعقوب قضاها ) أى إن يعقوب كان عليما بأن الحذر لا يغنى من القدر ، ولكن كانت هناك حاجة تدور بخلده ، ما أراد أن يكاشف بها أحدا منهم ، وهى وراء الأسباب العادية فى الاحتياط بسلامة بنيامين والعودة به ، قضاها بوصيته لأولاده من حيث لا يفطنون لها ، وهى خوفه عليهم من العين ومن أن ينالهم مكروه من قِبَل ذلك .

( وإنه لذو علم لما علمناه ) أى لذو علم خاص به وبأمثاله من الأنبياء ، لما أعطيناه من علم الوحى وتأويل الرؤيا الصادقة ، واعتقاده أن الإنسان يجب عليه

فى كل أمر يحاوله أن يتخذ له من الأسباب ما يصل به إلى غرضه و يبلغ به إلى غايته ثم يتوكل بعد ذلك على الله فى تسخير ما لم يصل إليه علمه مما لا تتم المقاصد بدونه .

( ولكن أكثر الناس لا يعلمون ) أن الواجب الجمع بين أخذ العُدّة والسعى فى تحقيق الأسباب الصحيحة الموصلة إلى المراد ، و بين الاتكال على الله وهو ما فعله يعقوب عليه السلام ، ولا يكفى تحقق الأسباب وحدها للحصول عليه .

---

وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ
بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٦٩) فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ
أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ (٧٠) قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ
مَاذَا تَفْقِدُونَ ؟ (٧١) قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ
وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ (٧٢) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ
وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ (٧٣) قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ؟ (٧٤) قَالُوا
جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٧٥)
فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ ، كَذَلِكَ
كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ،
نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ ، وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦) .

## شرح المفردات

آوى إليه : أى ضم إليه ، والابتئاس : اجتلاب البؤس والشقاء ، والسقاية ( بالكسر ) وعاء يسقى به ، و به كان يكال للناس الطعام و يقدّر بكيلة مصرية $\frac{1}{12}$

من الإردب المصرى ، وهو الذى عبر عنه بصواع الملك ، وأذّن مؤذن : أى نادى مناد ، من التأذين وهو تكرار الأذان والإعلام بالشىء الذى تدركه الأذن ، والعير : الإبل التى عليها الأحمال والمراد أصحابها ، زعيم : كفيل أجعله جزاء لمن يجىء به ، الكيد : التدبير الذى يخفى ظاهره على المتعاملين به حتى يؤدى إلى باطنه المراد منه ، ودين الملك : شرعه الذى يدين الله تعالى به .

## الإيضاح

( ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه ) أى لما دخلوا عليه فى مجلسه الخاص بعد دخولهم باحة القصر من حيث أمرهم أبوهم، ضم إليه أخاه الشقيق بنيامين، وقد حصل ما كان يتوقع يعقوب أو فوق ما كان يتوقع من الحدب عليه والعناية التى خصه بها .

( قال إنى أنا أخوك ) يوسف الذى فقدتموه صغيرا .

( فلا تبتئس بما كانوا يعملون ) أى فلا يلحقنك بعد الآن بؤس أى مكروه ولا شدة بسبب ما كانوا يعملون من الجفاء وسوء المعاملة بحسدهم لى ولك .

روى أنهم قالوا له: هذا أخونا قد جئناك به فقال لهم أحسنتم وأصبتم وستجدون أجر ذلك عندى فأنزلهم وأكرمهم ثم أضافهم وأجلس كل اثنين منهم على مائدة فبقى بنيامين وحده فبكى وقال لو كان أخى يوسف حيّا لأجلسنى معه ، فقال يوسف بقى أخوكم وحيدا ، فأجلسه معه على مائدته وجعل يؤاكله ، وقال أنتم عشرة فلينزل كل اثنين منكم بيتا ( حجرة ) وهذا لا ثانى له فيكون معى ، فبات يوسف يضمه إليه ويشم رائحته حتى أصبح وسأله عن ولده ،فقال لى عشرة بنين اشتققت أسماءهم من اسم أخ لى هلك فقال له : أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك ؟ قال من يجد أخا مثلك ؟ ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل، فبكى يوسف وقام إليه وعانقه وقال له : إنى أنا أخوك الخ .

( فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية فى رحل أخيه ) أى لما قضى لهم حاجتهم ووفاهم كيلهم جعل الإناء الذى يكيل به الطعام فى رحل أخيه .

وفى قوله: جعل السقاية ، إيماء إلى أنه وضعها بيده ولم يكل ذلك إلى أحد من فتيانه كتجهيزهم الأول والثانى لئلا يطلعوا على مكيدته .

( ثم أذن مؤذن ) أى وقد افتقد فتيانه السقاية ، لأنها الصواع الذى يكيلون به للممتارين فلم يجدوها ، فأذن مؤذنهم بذلك أى كرر النداء به كدأب الذين ينشدون المفقود فى كل زمان ومكان قائلا :

( أيتها العير إنكم لسارقون ) أى يا أصحاب العير قد ثبت عندنا أنكم سارقون فلا ترحلوا حتى ننظر فى أمركم .

( قالوا : وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون؟ ) أى قال إخوة يوسف للمؤذن ومن معه : أىّ شىء تفقدون ، وما الذى ضل عنكم فلم تجدوه ؟ .

( قالوا نفقد صواع الملك ) أى نفقد الصواع الذى عليه شارة الملك .

( ولمن جاء به حمل بعير ) أى ولمن أتى به حمل جمل من القمح ، وفى هذا دليل على أن عيرهم كانت الإبل لا الحمير .

( وأنا به زعيم ) أى قال المؤذن وأنا كفيل بحمل البعير ، أجعله حُلوانا لمن يجىء به ، سواء أكان مفقودا أم جاء به غير سارقه .

( قالوا تالله لقد علمتم ماجئنا لنفسد فى الأرض وما كنا سارقين ) أى قالوا لقد علمتم بما خبرتموه من أمرنا وسيرتنا من حين مجيئنا فى امتيارنا الأول وحين عودتنا إذ رددنا بضاعتنا التى ردت إلينا مع غيرها ، أننا ماجئنا لنفسد فى أرض مصر بسرقة ولا غيرها مما فيه تعدّ على حقوق الناس .

( قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين ) أى قال فتيان يوسف لهم : فما جزاء سارقه إن كنتم كاذبين فى جحودكم للسرق وادعائكم البراءة والنزاهة ؟

( قالوا جزاؤه من وجد فى رحله ) أى جزاؤه أخذ من وجد فى رحله وظهر أنه هو السارق له وجعله عبدا لصاحبه ، وقوله :

( فهو جزاؤه ) تقرير للحكم السابق وتأكيد له بإعادته ، كما تقول حق الضيف أن يكرم فهو حقه ، والقصد من الأول إفادة الحكم ، ومن الثانى إفادة أن ذلك هو الحق الواجب فى مثل هذا ، وقد كان الحكم فى شرع يعقوب أن يسترق السارق سنة.

( كذلك نجزى الظالمين ) أى مثل هذا الجزاء الأوفى نجزى الظالمين للناس بسرقة أمتعتهم وأموالهم فى شريعتنا ، فنحن أشد الناس عقابا للسرّاق.

وهذا تأكيد منهم بعد تأكيد لثقتهم ببراءة أنفسهم.

( فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ) أى فبدأ يوسف بتفتيش أوعيتهم التى تشتمل عليها رحالهم ابتعادا عن الشبهة وظن التهمة بطريق الحيلة.

( ثم استخرجها من وعاء أخيه ) أى ثم إنه بعد أن فرغ من تفتيش أوعيتهم فتش وعاء أخيه فأخرج السقاية منه.

( كذلك كدنا ليوسف ) أى مثل هذا الكيد والتدبير الخفىّ كدنا ليوسف وألهمناه إياه وأوحينا إليه أن يفعله.

ذلك أن الحكمة الإلهية اقتضت تربية إخوة يوسف وعقابهم بما فرّطوا فى يوسف ، واستحقاقهم إتمام النعمة عليهم يتوقف على أخذه بطريق لا جبر فيه ولا تقتضيه شريعة الملك ، وبه يذوقون ألم فراق بنيامين ومرارته ، فيما لا لوم فيه على أحد غير أنفسهم ، ولن يكون هذا الحكم منهم إلا بوقوع شبهة السرقة على بنيامين من حيث لا يؤذيه ذلك ولا يؤلمه ، وقد أعلمه أخوه يوسف به وبغايته . وفى هذا إيماء إلى جواز التوصل إلى الأغراض الصحيحة بما ظاهره الحيلة والمكيدة إذا لم يخالف شرعا ثابتاً.

ثم علل ما صنعه الله من الكيد ليوسف بقوله :

( ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك ) أى وما كان له ولا مما تبيحه أمانته

لملك مصر أن يخالف شرعه الذى فوض له الحكم به وهو لا يبيح استرقاق السارق، فما كان بالميسور له أخذ أخيه من إخوته ومنعه من الرحيل معهم إلا بحكمهم على أنفسهم بشريعة يعقوب التى تبيح ذلك .

ولما كانت هذه الوسيلة إلى تلك الغاية الشريفة منكرة على حسب الظاهر، لأنها تهمة باطلة ، وكان من شأن يوسف أن يتباعد عنها و يتحاماها إلا بوحى من الله ـ بين أنه فعل ذلك بإذن الله ومشيئته فقال :

( إلا أن يشاء الله ) أى إنه فعل ذلك بإذن الله ووحيه ، لا أنه هو الذى اخترع هذه المكيدة .

( نرفع درجات من نشاء ) أى نرفع من نشاء درجات كثيرة فى العلم والإيمان ونريه وجوه الصواب فى بلوغ المراد ، كما رفعنا درجات يوسف على إخوته فى كل شىء . وفى هذا إيماء إلى أن العلم أشرف المقامات ، وأعلى الدرجات .

( وفوق كل ذى علم عليم ) أى وفوق كل عالم من هو أوسع إحاطة منه وأرفع درجة ، إلى أن يصل الأمر إلى من أحاط بكل شىء علما وهو فوق كل ذى علم .

وخلاصة ذلك ـــ أن إخوة يوسف كانوا علماء إلا أن يوسف كان أعلم منهم.

---

قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ ، فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ، قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ (٧٧) قَالُوا يٰأَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٧٨) قَالَ مَعَاذَ اللهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ (٧٩) .

## الإيضاح

( قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل ) أى قال إخوة يوسف ، إن

يسرق بنيامين فقد سرق أخوه يوسف من قبل ، فالسرقة جاءت وراثة من أمهما إذ هما لا ينفردان عنا إلا بها . وفى قولهم هذا إيماء إلى أن الحسد لا يزال كامنا فى قلوبهم ، لاختلاف الأمهات ، ولمزيد محبة الأب لهما .

وأصح ما قيل فى سرقة يوسف ما رواه ابن مردويه عن ابن عباس مرفوعا قال : سرق يوسف عليه السلام صنما لجده أبى أمه من ذهب وفضة فكسره وألقاه فى الطريق فعيّره بذلك إخوته .

وأخرج ابن اسحاق وابن جرير وابن أبى حاتم عن مجاهد قال : كان أول ما دخل على يوسف عليه السلام من البلاء فيما بلغنى أن عمته وكانت أكبر ولد إسحاق عليه السلام وكانت إليها منطقة إسحاق إذ كانوا يتوارثونها بالكبر ، وكان يعقوب حين ولد له يوسف عليه السلام قد حضنته عمته فكان معها ، فلم يحب أحد شيئا من الأشياء كحبها إياه حتى إذا ترعرع ووقعت نفس يعقوب عليه السلام عليه فأتاها فقال يا أخية سلمى إلىّ يوسف ، فوالله ما أقدر على أن يغيب عنى ساعة ، قالت : فوالله ما أنا بتاركته فدعه عندى أياما أنظر إليه لعل ذلك يسلينى عنه ، فلما خرج يعقوب من عندها عمدت إلى منطقة إسحاق عليه السلام فحزمتها على يوسف عليه السلام من تحت ثيابه ، ثم قالت فقدت منطقة إسحاق فانظروا من أخذها ومن أصابها ؟ فالتمست ثم قالت : اكشفوا أهل البيت فكشفوهم فوجدوها مع يوسف عليه السلام ، فقالت والله إنه لَسِلْمٌ لى أصنع فيه ماشئت ، فأتاها يعقوب فأخبرته الخبر فقال لها : أنتِ وذاكِ إن كان فعل فهو سلم لك ما أستطيع غير ذلك ، فأمسكته فما قدر عليه حتى ماتت .

وهذا هو الذى عناه إخوته بقولهم (إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل) وهذه الروايات لا يوثق بها كما لا يدل شىء منها على سرقة حقيقية .

( فأسرّها يوسف فى نفسه ) أى فأضمر مقالتهم فى نفسه ولم يجبهم عنها .

( ولم يبدها لهم ) أى ولم يؤاخذهم بها لا قولا ولا فعلا صفحا عنهم وحلما .

ثم فسر ما أسره بقوله :

(قال أنتم شر مكانا) أى لكنه قال فى نفسه أنتم شر فى مكانتكم ومنزلتكم مما تعرّضون به أو تفترونه ، إذ أنكم سرقتم من أبيكم أحب أولاده إليه وعرضتموه للهلاك والرق ، وقلتم لأبيكم قد أكله الذئب الخ .

(والله أعلم بما تصفون) أى والله أعلم منكم بما تصفونه به ، لأنه سبحانه هو العليم بحقائق الأشياء ، فيعلم كيف كانت سرقة الذى أحلتم سرقته عليه .

ثم أرادوا أن يستعطفوه ليطلق لهم أخاه بنيامين فيرجعوا به إلى أبيهم ، لأنه قد أخذ عليهم الميثاق بأن يردوه إليه .

(قالوا يأيها العزيز إن له أبا شيخا كبيرا) طاعنا فى السن لا يكاد يستطيع فراقه وهو علالته التى يتعلل بها عن شقيقه الهالك ، أو هو كبير القدر جدير بالرعاية كما علمت مما سلف من قصصه ومن تعلقه به .

(فخذ أحدنا مكانه) أى بدله فلسنا عنده بمنزلته فى المحبة والشفقة عنده .

ثم عللوا ذلك بقولهم :

(إنا نراك من المحسنين) إلينا فى ميرتنا وضيافتنا وتجهيزنا ، فأتم إحسانك ، فما الإنعام إلا بالإتمام ، أو المعنى إن من عادتك الإحسان مطلقا ، فاجر على عادتك ولا تغيرها ، فنحن أحق الناس بذلك .

فأجابهم عن مقالتهم :

(قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده) أى حاش لله أن نأخذ إلا من وجدنا الصواع عنده ، لأنا قد أخذناه بفتواكم (من وجد فى رحله فهو جزاؤه) فلا يسوغ لنا أن نخلّ بموجبها .

ولم يقل إلا من سرق متاعنا اتقاء للكذب ، لأنه يعلم أنه ليس بسارق :

(إنا إذا لظالمون) أى إنا إذا أخذنا غيره لظالمون من وجهين : مخالفة شرعكم ونص فتواكم ، ومخالفة شريعة الملك .

obeikandi.com

فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ، فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٠) ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ (٨١) وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٨٢) قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ، عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا، إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٨٣) وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَا عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (٨٤).

## شرح المفردات

استيأسوا : أى يئسوا يأسا كاملا ، خلصوا : انفردوا عن الناس ، نجيا : أى متناجين متشاورين فيما يقولون لأبيهم ، كبيرهم : أى فى الرأى والعقل وهو يهوذا ، وموثقا : أى عهدا يوثق به وهو حلفكم بالله ، فرطتم : قصرتم فى شأنه ولم تحفظوا عهد أبيكم فيه ، أبرح : أفارق ، أمرا : أى كيدا آخر ، تولى : أعرض ، والأسف : أشد الحزن والحسرة على ما فات ، كظيم : أى مملوء غيظا على أولاده ممسك له فى قلبه ، القرية : اسم للموضع الذى يجتمع فيه الناس وللناس جميعا ، و يستعمل فى كل واحد منهما قاله الراغب .

## الإيضاح

( فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا ) أى فلما استحكم اليأس فى أنفسهم من قبول العزيز لشفاعتهم واستعطافهم بعد أن أقام الحجة عليهم بشرعهم وفتواهم وأنه إن فعل

غيره يكون ظالما بمقتضى شريعتهم وشريعة ملك مصر - اعتزلوا الناس ولم يخالطوا أحدا ، وانفردوا للمناجاة والتشاور فى أمرهم .

وخلاصة ذلك — إن أولئك الإخوة العشرة بعد أن انتهى كبيرهم من استعطاف العزيز وعدم جدوى ما فعل ، غادر كل منهم رحله وانضم بعضهم إلى بعض وأدنى رأسه من رأسه وأرهفوا آذانهم للنجوى .

( قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله ) أى قال كبيرهم عقلا ورأيا وهو يهوذا : ألم تعلموا أيها القوم أن أباكم يعقوب قد أخذ عليكم عهد الله وميثاقه لتردنّه إليه إلا أن يحاط بكم ، وقد رأيتم كيف تعذر ذلك عليكم .

( ومن قبل مافرطتم فى يوسف ) أى ومن قبل هذا قد قصرتم فى حفظ يوسف بعد وعدكم المؤكد بحفظه ، وكيف إن أباكم قد قاسى من أجله من الحزن ما قاسى .

( فلن أبرح الأرض حتى يأذن لى أبى أو يحكم الله لى ) أى فلن أفارق أرض مصر ، حتى يأذن لى أبى بتركها والرجوع إليه و بنيامين فيها ، أو يحكم الله لى بأمر من عنده مما هو غيب فى علمه ، كأن يترك العزيز لى أخى بإلهام منه تعالى أو بسبب آخر .

( وهو خير الحاكمين ) لأنه لايحكم إلا بما هو الحق والعدل ، وهو المسخر للأسباب والمقدر للأقدار .

ثم أمرهم بأن يقولوا لأبيهم ما يزيلون به التهمة عن أنفسهم قال :

( ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق ) صواع الملك فاسترقه وزيره العزيز القائم بالأمر فى مصر عملا بشريعتنا ، إذ نحن أنبأناه بها بعد أن استنبأنا إياها .

( وما شهدنا إلا بما علمنا ) أى وما شهدنا عليه بالسرقة بسماع أو إشاعة أو تهمة بل ما شهدنا إلا بما علمنا إذ رأينا الصواع قد استخرج من متاعه .

( وما كنا للغيب حافظين ) فنعلم أنه سيسرق حين أعطيناك المواثيق ، ولو كنا نعلم ذلك لما آتيناك العهد الموثق علينا .

(واسأل القرية التى كنا فيها) أى واسأل أهل القرية التى كنا نمتار فيها وهى مصر، فقد اشتهر فيهم أمر هذه السرقة حتى لو سئلوا لشهدوا .

(والعير التى أقبلنا فيها) أى واسأل أصحاب العير الذين كانوا يمتارون معنا .

ثم أكدوا صدق مقالهم بقولهم :

(وإنا لصادقون) فيما أخبرناك به ، سواء أسألت غيرنا أم لم تسأل ، إذ أن من عادتنا الصدق فلا نخبرك إلا به ولا نظنك فى مرية من هذا .

وبعد أن انتهى تعالى من سرد مقال كبيرهم عاد إلى ذكر مقال أبيهم فقال :

(قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا) أى فرجع الإخوة إلى أبيهم وقالوا له ما لقنهم كبيرهم فلم يصدقهم فيما قالوا ، بل قال لهم بل زينت لكم أنفسكم كيدا آخر فنفذتموه ، ومما يقوّى ذلك عندى أنكم لقنتم هذا الرجل حكم شريعتنا وأفتيتموه به وليس ذلك من شريعته .

(فصبر جميل) أى فحالى على ما نالنى من فقده صبر جميل لا جزع فيه ولا شكاية لأحد ، بل أشكو إلى الله وحده وأعلق رجائى به .

(عسى الله أن يأتينى بهم جميعا) أى أطلب من الله أن يرجع إلىّ يوسف وبنيامين والأخ الثالث الباقى بمصر ، وقد كان لديه إلهام بأن يوسف لم يمت وإن غاب عنه خبره .

(إنه هو العليم الحكيم) أى إنه العليم بوحدتى وفقدهم والحزن عليهم ، وله فينا حكمة بالغة وهو الحكيم فى أفعاله فيبتلى ويرفع البلاء على مقتضى سننه وحكمته فى تدبير خلقه ، وقد جرت سنته أن الشدة إذا تناهت جعل وراءها فرجا والمصيبة إذا عظمت جعل بعدها المخلص منها . كما قال (فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا) .

(وتولى عنهم) أى أعرض عنهم كراهة لما جاءوا به .

(وقال يا أسفا على يوسف) أى يا حزنى ويا حسرتى عليه أقبلى فهذا وقتك

والحال مقتضية لك ، فقد كنت أنتظر أن يأتونى من مصر ببشرى لقاء يوسف ، فخاب أملى وحل محله ذهاب ابنى المسلى عنه ، ولم يشرك معه بنيامين بالأسف عليه ، لأن مكان حب يوسف والرجاء فيه قد ملأ سويداء القلب وزواياه ، ومحل غيره دون ذلك .

( وابيضت عيناه من الحزن ) أى أصابتهما غشاوة بيضاء غطت على البصر مع بقاء العصب الذى يدرك المبصرات سليما معافى ، قال الدكتور عبدالعزيز إسماعيل باشا: البياض المصحوب بضياع البصر غالبا معناه (الجلوكوما) والمعروف عند الاختصاصيين فى أمراض العيون أن أهم سبب لها هو التغيرات فى الأوعية الشعرية نتيجة لأسباب كثيرة من أهمها الانفعالات العصبية ( كما يحدث فى زيادة ضغط الدم ) لاسيما الحزن ( الدكتور ملر ) اهـ .

( فهو كظيم ) أى مملوء غيظا على أولاده ، يردد حزنه فى جوفه ولا يتكلم بسوء ؛ والحزن عرض طبيعى للنفس ولا يذم شرعا إلا إذا بلغ بصاحبه أن يقول أو يفعل ما لا يرضى الله تعالى ، ومن ثم قال النبى صلى الله عليه وسلم عند موت ولده إبراهيم وقد جعلت عيناه تذرفان فقال له عبد الرحمن بن عوف وأنت يارسول الله : « يا ابن عوف إنها رحمة » ثم أتبعها بأخرى فقال : « إن العين تدمع والقلب يخشع ولا نقول إلا ما يرضى ربنا ، وإنا بفراقك يا إبراهيم محزونون » رواه الشيخان وغيرهما .

وفى التفسير بالمأثور عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن داود عليه السلام قال : يارب إن بنى إسرائيل يسألونك بإبراهيم وإسحاق ويعقوب ، فاجعلنى لهم رابعا ، فأوحى الله إليه أن : ياداود إن إبراهيم ألقى فى النار بسببى فصبر ، وتلك بلية لم تنلك ، وإن إسحاق بذل مهجة دمه بسببى فصبر ، وتلك بلية لم تنلك ، وإن يعقوب أخذت منه حبيبه فابيضت عيناه من الحزن ، وتلك بلية لم تنلك » قال الحافظ ابن كثير : وهذا حديث مرسل وفيه نكارة ، فإن الصحيح أن إسماعيل هو الذبيح اهـ.

---

قَالُوا تَاللهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ (٨٥) قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٦) يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللهِ ، إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (٨٧)

## شرح المفردات

تفتأ : أى لاتفتأ بمعنى لا تزال ، والحرض : المرض المشفى على الهلاك ، من الهالكين : أى الميتين ، البث فى الأصل: إثارة الشيء وتفريقه كبث الريح التراب، ثم استعمل فى إظهار ما انطوت عليه النفس من الغم أو السر ، وتحسسوا: أى تعرفوا أخبار يوسف بحواسكم من سمع وبصر ، والروح : التنفس ، يقال أراح الإنسان إذا تنفس ، ثم استعمل للفرج والتنفيس من الكرب .

## الإيضاح

( قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين ) أى قال ولد يعقوب الذين جاءوا من مصر حين قال يا أسفا على يوسف : تالله لا تزال تذكر يوسف وتلهج به حتى تصير بذلك إلى مرض لا تنتفع بنفسك معه أو تموت من الغم .

وخلاصة ذلك ــ إنك الآن فى بلاء شديد ونخاف أن يحصل لك ما هو أكثر وأقوى منه ، وهم يريدون بذلك منعه من البكاء والأسف .

فأجابهم والتمس لنفسه معذرة على الحزن :

( قال إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله ) أى لا تلومونى وأنا لم أشك إليكم

ولا إلى أحد من الخلق حزنى الذى أمضنى كتمانه ، فأفشيته بهذه الكلمة ( يا أسفا على يوسف ) بل شكوت ذلك إلى الله وحده .

( وأعلم من الله ما لا تعلمون ) أى وأنا أعلم فى ابتلائى بفراقه مع حسن عاقبته مالاتعلمون ، فأعلم أنه حىّ يرزق ، وأن الله يجتبيه ويتم نعمته عليه وعلى آل يعقوب ، وأنتم تظنون أن يوسف قد هلك ، وأن بنيامين قد سرق فاسترقّ ، وتحسبون أنى بحزنى ساخط على قضاء الله فى شىء أمضاه ولا مردّ له ، وأنا أعلم أن لهذا أجلا هو بالغه ، وإنى لأرى البلاء ينزل عليكم من كل جانب بذنوبكم وبتفريطكم فى يوسف من قبل ، وبأخيه الذى كان يسليني عنه من بعد .

وعن ابن عباس فى تفسير الآية : أنا أعلم أن رؤيا يوسف حق وأننى سأسجد له .

( يا بنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ) أى اذهبوا إلى مصر وتعرفوا أخبارها بحواسكم من سمع وبصر حتى تكونوا على يقين من أمرها .

( ولا تيأسوا من روح الله ) أى لا تقنطوا من فرجه سبحانه وتنفيسه عن النفس هذا الكرب ، بما ترتاح إليه الروح ويطمئن به القلب .

( إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ) بقدرته وسعة رحمته ويجهلون ما لله فى عباده من حكم بالغة ولطف خفى ، فإذا لم يصلوا إلى ما يبتغون من كشف ضر أو جلب خير بخعوا أنفسهم ( انتحروا ) هما وحزنا .

أما المؤمن حقا فلا تقنطه المصايب ولا الشدائد من رحمة ربه وتفريجه لكربه ، ومن ثم قال ابن عباس : إن المؤمن من الله تعالى على خير يرجوه فى البلاء ويحمده فى الرخاء .

---

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ، إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ

(٨٨) قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ (٨٩) قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ؟ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٩٠) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ (٩١) قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ، يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٩٢) اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (٩٣).

## شرح المفردات

الضر: أي ضر المجاعة من الهزال والضعف، والمزجاة الرديئة التي يدفعها التجار من أزجى الشيء وزجاه: إذا دفعه برفق كما قال: «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا» وآثرك: أي اختارك وفضلك، والخاطئ: هو الذي يأتي بالخطيئة عمدا، والمخطئ: من إذا أراد الصواب صار إلى غيره، والخطء: الذنب، وخطّأته: قلت له أخطأت، ولا تثريب: أي لا لوم ولا تأنيب وثرّب فلان على فلان إذا عدّد عليه ذنوبه، ويأت بصيرا: أي يصر بصيرا في الحال، أو يأت إليّ وهو بصير.

## الإيضاح

(فلما دخلوا عليه قالوا يأيها العزيز مسنا وأهلنا الضر) أي بعد أن قبلوا وصية أبيهم حين قال لهم اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه، وعادوا إلى مصر — دخلوا على يوسف عليه السلام فقالوا له يأيها العزيز أصابنا الهزال والضعف لما نحن فيه من المجاعة وكثرة العيال وقلة الطعام وقد شكوا إليه رقة الحال وقلة المال وشدة الحاجة وغير ذلك مما يرقق القلب مع أن مقصدهم التحسس من يوسف وأخيه — ليروا

تأثير الشكوى فيه ، فإن رق قلبه لهم ذكروا ما يريدون وإلا سكتوا وقد كان أبوهم يرجح أنه هو يوسف ، فأرادوا أن يروا تأثير هذا الاستعطاف فيه .

( وجئنا ببضاعة مزجاة ) أي ببضاعة رديئة يحتقرها التجار ويدفعونها احتقارا لها .

( فأوف لنا الكيل ) أي فأتمه كما تعودنا من جميل رعايتك وإحسانك .

( وتصدّق علينا ) بما تزيده على حقنا ببضاعتنا بعد أن تغمض عن رداءتها .

( إن الله يجزي المتصدّقين ) فيخلف ما ينفقون ويضاعف الأجر لهم .

وقد بالغوا في الضراعة والتذلل لما كانوا يريدون من تأثير ذلك في ملامح وجهه وجرْس صوته ومغالبة دمعه .

ثم بعد أن ذكر طريق تحسسهم ذكر رد يوسف عليهم .

( قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه ) أي قال ما أعظم ما فعلتم بيوسف من قبل وبأخيه بنيامين من بعد على قرب العهد ، وما أقبح ما أقدمتم عليه ، كما يقال للمذنب هل تدري من عصيت ، وهل تعرف من خالفت .

( إذ أنتم جاهلون ) قبح ما فعلتموه في حكم شرعكم ، وحقوق بر الوالدين وما يجب من رحمة القرابة والرحم .

وخلاصة ذلك ـ إنكم كنتم في حال يغلب عليكم فيها الجهل بهذه الحقوق وبعاقبة البغي والعقوق .

وقد يكون المراد من الجهل الطيش والنزق واتباع الهوى وطاعة الحسد والأثرة.

وقد قال لهم هذه المقالة تمهيدا لتعريفهم بنفسه ، إذ آن أن يصارحهم به بعد أن بلغ الكتاب أجله وبلغت به وبهم الأقدار غايتها ولم يبق بعد هذا إلا التصريح وتأويل رؤياه التي كانت السبب في كل ما حدث من تلك الأفاعيل .

وقد ذكّر يوسف إخوته بذنوبهم تذكيرا مجملا قبل أن يتعرف إليهم بذكر

العذر وهو الجهل بقبح الذنب فى ذاته و بسوء عاقبته لتمكن نزغ الشيطان من أنفسهم الأمارة بالسوء ، وقد ذكّرهم بطريق سؤال العارف المتجاهل على طريق التقرير لا التقريع والتوبيخ كما يدل عليه نفى التثريب والدعاء بالمغفرة .

قال صاحب الكشاف فى تفسير الآية : أتاهم من جهة الدين وكان حليما موفقا فكلمهم مستفهما عن معرفة وجه القبح الذى يجب أن يراعيه التائب ، فقال هل علمتم قبح ( ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون ) لا تعلمون قبحه فلذلك أقدمتم عليه - يعنى هل علمتم قبحه فتبتم إلى الله منه ؟ لأن علم القبح يدعو إلى الاستقباح، والاستقباح يجر إلى التوبة ، فكان كلامه شفقة عليهم وتنصحا لهم فى الدين لا معاتبة وتثريبا ، إيثارا لحق الله على حق نفسه فى ذلك المقام الذى يتنفس فيه المكروب ، وينفث المصدور ، ويتشفى المغيظ المحنق ، ويدرك ثأره الموتور ، فلله أخلاق الأنبياء ما أوطأها وأسجحها ، ولله حصا عقولهم ما أوزنها وأرجحها اهـ .

كان سؤاله إياهم عما فعلوا بيوسف وأخيه وهو سؤال العارف بأمرهم فيه من البداءة إلى النهاية - مصدقا لما أوحاه الله إليه حين ألقوه فى غيابة الجب من قوله « وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ » إذ يبعد أن يعرف هذا سواه ، فأرادوا أن يتثبتوا من ذلك و يستيقنوا به فوجهوا إليه سؤالا هو سؤال المتعجب المستغرب لما يسمع .

(قالوا أئنك لأنت يوسف؟) أى قالوا من المؤكد قطعا أنك أنت يوسف - عجبوا من أنهم يترددون عليه مدى سنتين أو أكثر وهم لا يعرفونه وهو يعرفهم و يكتم نفسه .

( قال أنا يوسف ) الذى ظلمتمونى غاية الظلم وقد نصرنى الله فأكرمنى وأوصلنى إلى أسمى المراتب ، أنا ذلك العاجز الذى أردتم قتله بإلقائه فى غيابة الجب ثم صرت إلى ما ترون .

( وهذا أخى ) الذى فرّقتم بينى و بينه وظلمتموه ثم أنعم الله عليه بما تبصرون .

(قد منّ الله علينا) فجمع بيننا بعد الفرقة، وأعزنا بعد الذلة، وآنسنا بعد الوحشة، وخلصنا مما ابتلينا به.

وفيه إيماء إلى أنه لا وجه لطلبكم بنيامين لأنه أخى لا أخوكم.

## تنبيه

فإن قيل لم لم يعرّف يوسف إخوته بنفسه فى أول مرة ليبشروا أباهم به وبما هو عليه من حسن حال وبسطة جاه فيكون فى ذلك السرور كل السرور له؟ فالجواب عن ذلك ما أجاب به ابن القيم فى كتابه [الإغاثة الكبرى] قال رحمه الله: لو عرّفهم بنفسه فى أول مرة لم يقع الاجتماع بهم وبأبيه ذلك الموقع العظيم ولم يحلّ ذلك المحل، وهذه عادة الله فى الغايات العظيمة الحميدة، إذا أراد أن يوصل عبده إليها هيأ له أسبابا من المحن والبلايا والمشاقّ، فيكون وصوله إلى تلك الغايات بعدها كوصول أهل الجنة إليها بعد الموت وأهوال البرزخ والبعث والنشور والموقف والحساب والصراط ومقاساة تلك الأهوال والشدائد، وكما أدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة ذلك المدخل العظيم بعد أن أخرجه الكفار ذلك المخرج، ونصره ذلك النصر العزيز بعد أن قاسى مع أعداء الله ما قاساه. وكذلك ما فعل برسله كنوح وإبراهيم وموسى وهود وصالح وشعيب عليهم السلام.

فهو سبحانه يوصل إلى الغايات الحميدة بالأسباب التى تكرهها النفوس وتشق عليها كما قال «كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ، وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ، وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ» وربما كان مكروه النفوس إلى محبوبها سببا ما مثله سبب.

وبالجملة فالغايات الحميدة فى خبايا الأسباب المكروهة الشاقة، كما أن الغايات المكروهة فى خبايا الأسباب المشتهاة المستلذة، وهذا من حين خلق الله سبحانه الجنة وحفها بالمكاره والنار وحفها بالشهوات اهـ.

(إنه من يتق ويصبر فإن الله لايضيع أجر المحسنين) أى إن الحق الذى نطقت به الشرائع وأرشدت إليه التجارب هو: من يتق الله فيما به أمر وعنه نهى، ويصبر على ما أصابه من المحن وفتن الشهوات والأهواء، فلا يستعجل الأقدار بشىء قبل أوانه، فإن الله لايضيع أجره فى الدنيا ثم يؤتيه أجره فى الآخرة.

وفى الآية شهادة له من ربه بأنه من المحسنين المتقين الله، وبأن من كان مطيعا لنفسه الأمارة بالسوء ومتبعا لنزغات الشيطان فان عاقبته الخزى فى الدنيا والنكال فى الآخرة، إلا من تاب وعمل صالحا ثم اهتدى.

(قالوا تالله لقد آثرك الله علينا) أى قال إخوة يوسف له: لقد فضلك الله علينا وآثرك بالعلم والحلم والفضل.

(وإن كنا لخاطئين) أى وما كنا فى صنيعنا بك وتفريقنا بينك وبين أخيك إلا متعمدين للخطيئة، ولا عذر لنا فيها عند الله ولا عند الناس.

وبعد أن قدموا له المعذرة أجابهم بالصفح عما فعلوا.

(قال لاتثريب عليكم اليوم) أى لا لوم ولا تعنيف عليكم فى هذا اليوم الذى هو مظنته، ولكن لكم عندى الصفح والعفو. وهو إذا لم يثرّب أول لقائه واشتعال ناره، فبعده أولى.

وقال السيد المرتضى: إن كلمة (اليوم) موضوعة موضع الزمان كله كقوله:

اليوم يرحمنا من كان يغبطنا واليوم نتبع من كانوا لنا تبعا

كأنه أريد بعد اليوم اهـ.

(يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين) أى يعفو الله لكم عن ذنبكم وظلمكم ويستره عليكم، وهو أرحم الراحمين لمن أقلع عن ذنبه وأناب إلى طاعته بالتوبة من معصيته.

وقد تمثل النبى صلى الله عليه وسلم بالآية يوم فتح مكة حين طاف بالبيت وصلى ركعتين، ثم أتى الكعبة فأخذ بعضادتى الباب وقال: «ماذا تظنون أنى

فاعل بكم ؟ قالوا نظن خيرا ، أخ كريم وابن أخ كريم ، فقال : وأنا أقول كما قال أخي يوسف ( لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ) ، فخرجوا كأنما نشروا من القبور » . أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس والبيهقى عن أبى هريرة .

روى أن يوسف عليه السلام لما عرّف نفسه إخوته سألهم عن أبيهم فقالوا ذهب بصره فعند ذلك أعطاهم قميصه وقال :

( اذهبوا بقميصى هذا ) الذى على بدنى أو بيدى .

( فألقوه على وجه أبى يأت بصيرا ) أى ألقوه على وجهه حين وصولكم إليه دون تأخير يصر بصيرا ، وقد علم هذا إما بوحى من الله ، وإما لأنه علم أن أباه ما أصابه ما أصابه إلا من كثرة البكاء وضيق النفس فإذا ألقى عليه قميصه شرح صدره وسر أعظم السرور ، وقوى بصره وزالت منه هذه الغشاوة التى رانت عليه ، والقوانين الطبية تؤيد هذا ، كما سيأتى بعد .

( وائتونى بأهلكم أجمعين ) من الرجال والنساء والذرارى وغيرهم ، وقد روى أن أهله كانوا سبعين رجلا وامرأة وولدا .

---

وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ (٩٤) قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ (٩٥) فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ، قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّى أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٩٦) قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ (٩٧) قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّى إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٩٨) .

## شرح المفردات

يقال فصل عن البلد : إذا انفصل وجاوز حيطانه ، وتفندون : أى تنسبونى إلى

الفند: وهو فساد الرأى وضعف العقل والخرف من الكبر، فى ضلالك: أى فى خطئك أو فى إفراطك فى حبه والإصرار على اللهج به، وارتد: أى رجع.

## الإيضاح

( ولما فصلت العير قال أبوهم إنى لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون ) أى ولما انفصلت عير بنى يعقوب عن حدود مصر قافلة إلى أرض الشام، قال أبوهم لمن حضره من حفدته ومن غيرهم: إنى لأشم رائحة يوسف كما عرفتها فى صغره، لولا أن تنسبونى إلى ضعف الرأى وفساد العقل وخرف الكبر، لصدقتمونى فى أنى أجد رائحته حقيقة وأنه حى قد قرب موعد لقائه والتمتع برؤيته.

وروى عن ابن عباس أنه لما خرجت العير هاجت ريح فجاءت يعقوب بريح قميص يوسف، قال إنى لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون، فوجد ريحه من ثمانية أيام، وفى رواية من ثمانين فرسخاً، والمراد من مسافات بعيدة جدا.

( قالوا تالله إنك لفى ضلالك القديم ) أى قال حاضرو مجلسه: تالله إنك لفى خطئك الذى طال أمده باعتقادك أن يوسف حى يرجى لقاؤه وقد قرب.

ولا غرو فللخلىّ أن يقول فى الشجىّ ما شاء، فأذنه عن العذل صماء

سلوتى عنكم احتمال بعيد	وافتضاحى بكم ضلال قديم

كل من يدعى المحبة فيكم	ثم يخشى الملام فهو مليم

قال قتادة فى تفسيرها: تالله إنك لفى ضلالك القديم أى من حب يوسف لا تنساه ولا تسلوه اهـ، قالوا لوالدهم كلمة غليظة لم يكن ينبغى لهم أن يقولوها له.

( فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا ) أى فلما جاء البشير وهو ابنه يهوذا الذى يحمل القميص من يوسف (وهو الذى حمل إليه قميصه الملطخ بالدم الكذب) ليمحو السيئة بالحسنة، ألقاه على وجه يعقوب فعاد من فوره بصيرا كما

كان ـ بل قد قيل إنه عادت إليه سائر قواه ، وليس ذلك بعجيب ولا منكر ، فكثيرا ما شفى السرور من الأمراض وجدد قوى الأبدان والأرواح ، والتجارب وقوانين الطب شاهد صدق على صحة ذلك . قال الدكتور عبد العزيز إسماعيل باشا : لاتتحسن أعراض مرض ( الجولكوما ) أو شدة توتر العين أو تقف شدته إلا بالعلاج ، ومنه العمليات الجراحية ، ولكن شفاء سيدنا يعقوب بوضع القميص على وجهه هو معجزة من المعجزات الخارجة عن قدرة الإنسان ، وليس المهم هو القميص أو وضعه على وجهه ، فقد كان ذلك لتسهيل وقع المعجزة على الحاضرين فحسب ، ولكن المهم هو طريقة الشفاء وهى إرادة الله المنحصرة فى ( كن فيكون ) وهى خارجة عن كل السنن الطبيعية التى أمر الإنسان أن يتعلمها ، فعظمة المعجزة ليست فى النتيجة فحسب ولكن فى طريق الشفاء ـ وما أعظم إعجاز القرآن الذى وصف حالة مرضية خاصة وبين سببها ، ولم يكن يعلم العالم شيئا عن هـذا المرض فى ذلك الوقت ولا بعده بزمن طويل اهـ .

وقد أجاب يعقوب من لاموه بما كان عليه من علم قطعى من ربه بصدق مايقول.

( قال ألم أقل لكم إنى أعلم من الله مالاتعلمون ؟ ) أى قال لهم: ألم أقل لكم حين أرسلتكم إلى مصر وأمرتكم بالتحسس ونهيتكم عن اليأس من روح الله : إنى أعلم بوحى الله لامن خطرات الأوهام ما لاتعلمون من حياة يوسف عليه السلام ـ وقد ذكرهم الآن إذ عاد بصيرا بما كان قد قاله لهم حين ابيضت عيناه من الحزن وهو كظيم .

## نبذة فى تعليل شم يعقوب رائحة يوسف

أثبت العلم حديثا أن الريح تحمل الغبار وما فيه من قارة إلى أخرى ، فتحمله من إفريقية مثلا إلى أوربا وهى مسافة أبعد مما بين مصر وأرض كنعان من بلاد الشام وهى بلا شك تحمل رائحة ماله منها رائحة ، ولكن الغريب شم البشر لها من المسافات البعيدة ، والإنسان إذا قيس بغيره من الوحوش والحشرات كان أضعف منها شما ، فالكلب ذو حاسة قوية فى الشم حتى ليدرّ به الآن رجال الشرطة ويستخدمونه فى حوادث الإجرام من قتل وسرقة لإثبات التهمة على المجرمين ، فيأتون بالكلب المعلم فيشَمّ المجرم ويخرجه من بين أشخاص كثيرين ، ويرى ذلك رجال القانون دليلا قويا على إثبات الجريمة على من يرشد إليه ، بل دليلا قاطعا فى بعض الدول .

والروائح منها القوى والضعيف ، ومن أضعفها رائحة جسم الإنسان وعرقه وما يصيب ثوبه منها ، ولكن مانحن فيه من خوارق العادات ومن خواص عالم الغيب لامن السنن العادية والحوادث التى تتكرر من البشر .

وقد دلت الآية على أن يعقوب عليه السلام أخبر أنه وجد رائحة يوسف لما فصلت العير من أرض مصر ، فعلينا أن نؤمن به لأنه معصوم من الكذب ، وقد تبين صدقه بعد ، وليس بالواجب علينا أن نعرف كنهه أو نصل إلى معرفة سببه ، ولكن إذا نحن قلنا إنه لشدة تفكره فى أمر ولده وتذكره لرائحته حين كان يضمه ويشمه — شعر بتلك الرائحة قد عادت له سيرتها الأولى — لم يكن ذلك مجانبا للصواب ولا معارضا للعقل ولا ناقضا لما يثبته العلم ، أو قلنا بأنا نتقبل هذا بدون تعليل ولا تصوير لكيفية ذلك — لم نبعد عن العقل ولا عن العلم ، إذ لاخلاف بين العلماء فى أن مايجهله الباحثون أضعاف مايعرفونه .

وعلى الجملة فعلينا التسليم بما أخبر به دون حاجة للبحث فى كنهه أو صفته مادام ذلك داخلا فى حيز الإمكان .

( قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين ) أى قال أولاده وكانوا قد وصلوا إثر البشير . يا أبانا اسأل الله أن يغفر لنا ذنوبنا التى اجترحناها من عقوقك وإيذاء أخوينا ، إنا كنا متعمدين لهذه الخطيئة ، عاصين لله ، ظانين أن نكون بعدها قوما صالحين .

الآن اعترفوا بذنوبهم كما اعترفوا ليوسف من قبل ، لكن يوسف بادر إلى الاستغفار لهم وهم لم يطلبوه منه ، وعليك أن تسمع جواب أبيهم الآتى :

( قال سوف أستغفر لكم ربى إنه هو الغفور الرحيم ) وعدهم بالاستغفار لهم فى مستأنف الزمان ، وعلل هذا بأن ربه واسع المغفرة والرحمة ، لاينقطع رجاء المؤمن فيها وإن ظلم وأساء .

والفارق بين جواب يعقوب وجواب يوسف من وجوه كثيرة اقتضتها الحكمة:

(١) إن حال أبيهم معهم حال المربى المرشد للمذنب ، لاحال المنتقم الذى يخشى أذاه ، وليس من حسن التربية ولا من طرق التهذيب أن يريهم أن ذنبهم هين لديه حتى يعجل بإجابة مطلبهم بالاستغفار لهم .

(٢) إن ذنبهم لم يكن موجها إليه مباشرة ، بل موجه إلى يوسف وأخيه ، ثم إليه بالتبع واللزوم ، إلى أنه ليس من العدل أن يستغفر لهم إلا بعد أن يعلم حالهم مع يوسف وأخيه ، ولم يكن يعقوب قد علم بعفو يوسف عنهم واستغفاره لهم .

(٣) إن هذا ذنب كبير وإثم عظيم طال عليه الأمد وحدثت منه أضرار نفسية وخلقية وأعمال كان لها خطرها ، فلا يمّحى إلا بتوبة نصوح تجتث الجذور التى علقت بالأنفس والأرجاس التى باضت وأفرخت فيها .

فلا يحسن بعدئذ من المربى الحكيم أن يسارع إلى الاستغفار لمقترفها عقب طلبه حتى كأنها من هينات الأمور التى تغفر ببادرة من الندم ، ومن ثم تلبث فى الاستغفار لهم إلى أجل ليعلمهم عظيم جرمهم وأعلمهم بأنه سوف يتوجه إلى ربه ويطلب لهم الغفران منه بفضله ورحمته .

(٤) إن حال يوسف معهم كان حال القادر بل المالك القاهر مع مسىء ضعيف لديه ، عظم جرمه عليه ، فلم يشأ أن يكون الغفران بشفاعته ودعائه ، فآمنهم من خوف الانتقام تعجيلا للسرور بالنعمة الجديدة التى جعل الله أمرها بين يديه ، وليروا ويرى الناس فضل العفو عند القدرة ، وليكون لهم فى ذلك أحسن الأسوة ، وفى هذا من ضروب التربية أكبر العظة والعبرة ، ولو أخر المغفرة لكانوا فى وجل مما سيحل بهم ولخافوا شر الانتقام ، فكانوا فى قلق دائم وتبلبل بال واضطراب نفس فكانت معرفتهم له عذابا فوق العذاب الذى هم فيه ، ولكن شاءت رحمته بهم أن يجعل السرور عاما والحياة الجديدة حافلة بالاطمئنان وقرة العين ، وهكذا شاءت الأقدار وشاء الله أن يكون ذلك وهو العليم الحكيم .

## تأويل رؤيا يوسف من قبل

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (٩٩) وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ، وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ، إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (١٠٠) .

## شرح المفردات

آوى إليه أبويه : أى ضمهما إليه واعتنقهما ، ورفع أبويه : أى أصعدهما ، والعرش كرسى تدبير الملك لا كل سرير يجلس عليه الملك وخروا له سجدا : أى أهوى أبواه

وإخوته إلى الأرض وخروا له سجدا ، تأويل رؤياى : أى مآلها وعاقبتها ، وأصل النزغ : نخس الرائض الفرس بالمهماز لإزعاجه للجرى ، ثم قيل نزغه الشيطان كأنه نخسه ليحثه على المعاصى ، ونزغ بين الناس : أفسد بينهم بالحث على الشر .

## المعنى الجملى

بعد أن أخبر فيما سلف أن يوسف قال لإخوته ائتونى بأهلكم أجمعين ـ أخبر هنا أنهم رحلوا من بلاد كنعان قاصدين بلاد مصر ، فلما أُخبر يوسف بقرب مجيئهم خرج للقائهم ، وأمر الملك أمراءه وأكابر دولته بالخروج معه للقاء نبى الله يعقوب عليه السلام .

## الإيضاح

( فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه ) فى العبارة حذف وإيجاز يفهم من سياق الكلام والمعنى ـ بعد أن ذهب إخوة يوسف إلى أبيهم وأخبروه بمكانة يوسف فى مصر وأنه الحاكم المفوض المستقل فى أمرها ـ أبلغوه أنه يدعوهم كلهم للإقامة معه فيها والتمتع بحضارتها فرحلوا حتى بلغوها ـ ولما دخلوا على يوسف وكان قد استقبلهم فى الطريق فى جمع حافل احتفاء بهم ضم إليه أبويه واعتنقهما .

وظاهر الآية يدل على أن أمه كانت لاتزال حية ورجحه ابن جرير ، وقال جمع من المفسرين إن المراد بأبويه أبوه وخالته ، لأن أمه قد ماتت قبل ذلك فتزوج أبوه خالته .

( وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين ) أى وقال لهم ادخلوا بلاد مصر إن شاء الله آمنين على أنفسكم وأنعامكم من الجوع والهلاك ، فإن سنى القحط كانت لاتزال باقية ، وذكر المشيئة فى كلامه للتبرؤ من مشيئته وحوله وقوته إلى مشيئة الله الذى سخر ذلك لهم وسخر ملك مصر وأهلها له ثم لهم ، وهـذا من شأن المؤمنين ولا سيما الأنبياء والصديقون .

obeikandi.com

وفى سفر التكوين من التوراة أن يوسف عليه السلام عرّف نفسه إلى إخوته عقب مجيئهم ببنيامين شقيقه وأرسلهم لاستحضار أبويه وأهلهم ، فجاءوا فأقطعهم أرض جاسان ( إقليم الشرقية الآن ) وأرسل إليهم العربات لتحملهم وأحمال الغذاء والثياب على الحمير ، فلما وصلوا إليها شد يوسف على مركبته وصعد ليلاقى إسرائيل أباه فى جاسان ، فلما ظهر له ألقى بنفسه على عنقه وبكى طويلا ، ثم استأذنهم ليذهب إلى فرعون ويخبره بمجيئهم ومكانهم ليقرهم عليه ، لأنهم رعاة وأرض جاسان خصبة ففعل ، ثم أخذ وفدا منهم لمقابلة فرعون وأدخل أباه عليه فبارك فرعون .

ومن هذا يتبين أن هذا اللقاء كان هو الأول لهم ، و بعد لقاء فرعون قال لهم ادخلوا مصر ثم عاد بهم إلى قصره الخاص .

( ورفع أبويه على العرش ) أى أصعد أبويه إلى السرير الذى كان يجلس عليه لتدبير أمر الملك تكرمة لهما فوق ما فعله بالإخوة .

( وخروا له سجدا ) أى أهوى أبواه وإخوته وخروا له سجودا ، وكان ذلك تحية الملوك والعظماء فى عهدهم ، ومن ثم سجد يعقوب لأخيه عيسو حين تلاقيا بعد تفرق .

والسجود ليس عبادة بذاته ، وإنما يكون كذلك بالنية والتزام الصفة الشرعية فيه .

( وقال ياأبت هذا تأويل رؤياى من قبل ) أى هذا السجود منكما ومن إخوتى الأحد عشر هو المآل والعاقبة التى آلت إليها رؤياى التى رأيتها من قبل فى صغرى « إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ » .

( قد جعلها ربى حقا ) أى قد جعلها ربى حقيقة واقعة واستبان أنها لم تكن أضغاث أحلام ، فالكواكب الأحد عشر مثال إخوتى الأحد عشر ، وأنت وأمى مثال الشمس والقمر ، ولا بدع فى ذلك فهذه الأسرة هى التى حفظ الله بها ذرية إسحاق بن إبراهيم لتنشر دين التوحيد بين العالمين فكانت خير أسر البشر جميعا .

( وقد أحسن بى إذ أخرجنى من السجن وجاء بكم من البدو ) أى وقد أحسن بى ربى إذ أخرجنى من السجن وسما بى إلى عرش الملك ، وجاء بكم من البادية حيث كنتم تعيشون فى شظف العيش وخشونته ، ونقلكم إلى الحضر حيث تعيشون فى نعم الاجتماع ونشر الدين الحق ، وتتعاونون على ترقى العلوم والصناعات .

ولم يذكر له إخراجه من الجب لوجوه :

(١) إنه ذكر آخر المحن المتصلة بنهاية النعم .

(٢) إنه لو ذكر حادث الجب لكان فى ذلك تثريب لإخوته وقد قال ( لا تثريب عليكم اليوم ) .

(٣) إنه بعد خروجه منه صار عبدا لا ملكا .

(٤) إنه بعد خروجه منه وقع فى مضارّة تهمة المرأة التى بسببها دخل السجن .

وعلى الجملة فالنعم الكاملة إنما حصلت بعد خروجه من السجن .

( من بعد أن نزغ الشيطان بينى و بين إخوتى ) أى من بعد أن أفسد الشيطان ما بينى و بين إخوتى من عاطفة الأخوّة ، وقطع ما بيننا من وشيجة الرحم ، وهيج الحسد والشر .

( إن ربى لطيف لما يشاء ) أى إن ربى عالم بدقائق الأمور رفيق بعباده ، فينفذ ما يشاء فى خلقه بحكمته البالغة ، فمن ذا الذى كان يدور بخلده أن الإلقاء فى الجب يعقبه الرق ، و يتلو الرق فتنة العشق ، ومن أجله يزجّ فى غيابات السجن ، ومن ذا إلى السيادة والملك .

( إنه هو العليم الحكيم ) أى إنه هو العليم بمصالح عباده فلا تخفى عليه مبادئ الأمور وغاياتها ، الحكيم الذى يفعل الأمور على وجه الحكمة والمصلحة ، فيجازى الذين أحسنوا بالحسنى ، و يجعل العاقبة للمتقين .

و بعد أن حمد يوسف ربه على لطفه فى مشيئته وعلمه وحكمته ـ تلا ذلك بالدعاء فقال :

## طلب يوسف من ربه حسن الخاتمة

رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (١٠١) .

## الإيضاح

( رب قد آتيتنى من الملك ) أى قال يوسف بعد ماجمع الله له أبويه و إخوته ، و بسط عليه من الدنيا ما بسط من الكرامة ، ومكن له فى الأرض : رب قد آتيتنى ملك مصر وجعلتنى متصرفا فيها بالفعل و إن كان لغيرى بالاسم ، ولم يكن لى فيها حاسد ولا باغ إذ أجريت الأمور على سنن العدل ووفق الحكمة والسداد .

( وعلمتنى من تأويل الأحاديث ) أى وعلمتنى ما أعبر به عن مآل الحوادث ومصداق الرؤى الصحيحة فتقع كما قلت وأخبرت .

( فاطر السموات والأرض ) أى مبدعهما وخالقهما .

( أنت ولىي فى الدنيا والآخرة ) أى أنت متولى أمورى ومتكفل بها ، أو أنت موال لى وناصرى على من عادانى وأرادنى بسوء و إن نعمك لتغمرنى فى الدنيا ، وسأتمتع بها بفضلك ورحمتك فى الآخرة ، ولا حول لى فى شىء منهما ولا قوة .

( توفنى مسلما ) أى اقبضنى إليك مسلما ، وأتم لى وصية آبائى وأجدادى . « وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ: يَا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ » .

( وألحقنى بالصالحين ) أى وألحقنى بصالح آبائى إبراهيم و إسحاق ومن قبلهم

من أنبيائك ورسالك ، واحشرنى فى زمرتهم ، وهذا الدعاء بمعنى ما جاء فى سورة الفاتحة « اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ . صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ » أى من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين .

---

## فى ذكر هذا القصص إثبات لنبوة محمد عليه السلام

ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ (١٠٢) وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (١٠٣) وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (١٠٤) .

## الإيضاح

( ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ) أى إن نبأ يوسف ووالده يعقوب وإخوته وكيف مكن ليوسف فى الأرض وجعل له العاقبة والنصر وآتاه الملك والحكمة فساس ملكا عظيما وأحسن إدارته وتنظيمه وكان خير قدوة للناس فى جميع ما دخل فيه من أطوار الحياة ، بعد أن أرادوا به السوء والهلاك حين عزموا أن يجعلوه فى غيابة الجب ــ كل ذلك من أخبار الغيب الذى لم تشاهده ولم تره ، ولكنا نوحيه إليك لنثبت به فؤادك ، فتصبر على ما نالك من الأذى من قومك ، ولتعلم أن من قبلك من الرسل لما صبروا على ما نالهم فى سبيل الله ، وأعرضوا عن الجاهلين فازوا بالظفر وأيدوا بالنصر وغلبوا أعداءهم .

ثم أقام الدليل على كونه من الغيب بقوله :

( وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون ) أى وما كنت حاضرا عندهم ولا مشاهدا حين صحت عزائمهم على أن يلقوا يوسف فى غيابة الجب ، يبغون بذلك هلاكه والخلاص منه ، وهذا كقوله تعالى بعد سياق موسى « وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ

obeikandi.com

الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا » الآية ، وقوله فى هذه القصة « وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِى أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا » الآية .

وخلاصة هذا ـ إن الله أطلع رسوله على أنباء ما سبق ليكون فيها عبرة للناس فى دينهم ودنياهم ، ومع هذا ما آمن أكثرهم ، ومن ثم قال :

( وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ) أى وما أكثر مشركى قومك ولو حرصت على أن يؤمنوا بك ويتبعوا ما جئتهم به من عند ربك ـ بمصدقيك ولا متبعيك .

قال الرازى : إن كفار قريش وجماعة من اليهود طلبوا ذكر هذه القصة من رسول الله صلى الله عليه وسلم على سبيل التعنت ، فلما ذكرها أصروا على كفرهم فنزلت هذه الآية ، وكأنه إشارة إلى ما ذكره الله تعالى فى قوله « إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ » .

( وما تسألهم عليه من أجر ) أى وما تسأل هؤلاء الذين ينكرون نبوتك على ما تدعوهم إليه من إخلاص العبادة لربك وطاعته وترك عبادة الأصنام والأوثان من أجر وجزاء منهم ، بل ثوابك وأجر عملك على الله .

والخلاصة ـ إنك لا تسألهم على ذلك مالا ولا منفعة فيقولوا إنما تريد بدعائك إيانا إلى اتباعك أن ننزل لك عن أموالنا إذا سألتنا عن ذلك ، فحالك حال من سبقك من الرسل ، فهم لم يسألوا أقوامهم أجرا على التبليغ والهدى ، والقرآن ملىء بنحو هذا كما فى سورتى هود والشعراء وغيرهما .

وإذا كنت لا تسألهم على ذلك أجرا فقد كان حقا عليهم أن يعلموا أنك إنما تدعوهم إليه اتباعا لأمر ربك ونصيحة منك لهم .

( إن هو إلا ذكر للعالمين ) أى هذا الذى أرسلك به ربك تذكير وموعظة لإرشاد العالمين كافة لا لهم خاصة ، وبه يهتدون وينجون فى الدنيا والآخرة .

وفى الآية إيماء إلى عموم رسالته صلى الله عليه وسلم .

وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّٰهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ (١٠٦) أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللّٰهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٠٧)

## شرح المفردات

وكأين : بمعنى كثير ، والآية هنا: الدليل الذى يرشد إلى وجود الصانع ووحدته وكمال علمه وقدرته ، يمرون عليها : يشاهدونها ، معرضون : أى لا يعتبرون بها ، والغاشية : العقوبة تغشاهم وتعمهم ، و بغتة : فجأة .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أن أكثر الناس لا يؤمنون مهما حرصت على إيمانهم ولا يتأملون فى الدلائل الدالة على نبوتك — ذكر هنا أن هذا ليس ببدع منهم ، فأكثرهم فى غفلة عن التفكر فى آيات الله ودلائل توحيده بما خلقه فى السموات من كواكب ثوابت وسيارات ، وأفلاك دائرات ، وفى الأرض من حدائق وجنات ، وجبال راسيات ، و بحار زاخرات ، وقفار شاسعات ، وحيوان ونبات :

وفى كل شىء له آية تدل على أنه الواحد

## الإيضاح

( وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون ) أى وكم فى السموات والأرض من آيات دالة على توحيد الله وكمال علمه وقدرته من شمس وقمر ونجوم وجبال و بحار ونباتات وأشجار يمر عليها أكثر الناس وهم غافلون عما فيها

من عبرة ودلالة على توحيد ربها ، وأن الألوهية لا تكون إلا للواحد القهار الذى خلقها وخلق كل شىء فأحسن تدبيره .

وعلى الجملة فما فى السموات والأرض من عجائب وأسرار وإتقان وإبداع — ليدل أتم الدلالة على العلم المحيط والحكمة البالغة والقدرة التامة .

والذين يشتغلون بعلم ما فى السموات والأرض وهم غافلون عن خالقهما ، ذاهلون عن ذكره ، يمتعون عقولهم بلذة العلم ، ولكن أرواحهم تبقى محرومة من لذة الذكر ومعرفة الله عز وجل ، إذ الفكر وحده وإن كان مفيدا لا تكون فائدته نافعة فى الآخرة إلا بالذكر ، والذكر وإن أفاد فى الدنيا والآخرة لا تكمل فائدته إلا بالفكر ، فطوبى لمن جمع بين الأمرين فكان من الذين أوتوا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة ونجوا من عذاب النار فى الآخرة .

(وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) أى وما يقر هؤلاء بأن الله هو الخالق كما قال « وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ » إلا وهم مشركون به فى عبادتهم سواه من الأوثان والأصنام ومن زعمهم أن له ولدا ، تعالى عما يقولون .

قال ابن عباس هم أهل مكة آمنوا وأشركوا وكانوا يقولون فى تلبيتهم : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك ، إلا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك ، وهذا هو الشرك الأعظم ، إذ يعبد مع الله غيره ، وفى صحيح مسلم أنهم كانوا إذا قالوا لبيك لا شريك لك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ( قَدْ ، قَدْ ) أى حسب حسب لا تزيدوا على هذا ، وفى الصحيحين عن ابن مسعود «قلت يارسول الله : أى الذنب أعظم ؟ قال : أن تجعل لله ندّا وهو خلقك » .

ومن درس تاريخ الأمم الماضية والحاضرة عرف كيف طرأ الشرك على الأمم ، وسرى فى عباداتهم سريان السم فى الدسم .

قال ابن القيم فى إغاثة اللهفان : وما زال الشيطان يوحى إلى عبّاد القبور منهم أن الدعاء عندها مستجاب ، ثم ينقلهم من هذه المرتبة إلى الدعاء لها والإقسام على الله بها ـ مع أن شأن الله أعظم من أن يقسم عليه أو يسأل بأحد من خلقه ـ فإذا تقرر ذلك عندهم ، نقلهم منه إلى دعائه وعبادته وسؤاله الشفاعة من دون الله ، واتخاذ قبره وثنا تعلق عليه القناديل والستور ، ويطاف به ويستلم ويقبّل ويحج إليه ويذبح عنده ، فإذا تقرر هذا عندهم نقلهم منه إلى دعاء الناس إلى عبادته واتخاذه عيدا ومنسكا ، ورأوا أن ذلك أنفع لهم فى دنياهم وأخراهم ، وكل هذا مما علم بالاضطرار من دين الإسلام أنه مضاد لما بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم من تجديد التوحيد وألا يعبد إلا الله اهـ .

أما التوسل إلى الله بصالحى عباده كقولهم اللهم بجاه فلان عندك أو بحق فلان أو بحرمته أسألك أن تفعل كذا فلم ينقل عن أحد من سلف الأمة أنهم كانوا يدعون بمثل هذا الدعاء ، وما أخرجه الطبرانى من حديث فاطمة بنت أسد من قوله ( بحق نبيك والأنبياء من قبلى ) فقد طعن فيه رجال الحديث ، على أنه ليس فيه إلا الدعاء بحق النبيين فحسب ، وهو ما فضلهم الله به على غيرهم من النبوة والرسالة وما وعدهم به من التمكين والنصر ، على أن حقوق الرسل وصلاح الصالحين ليست من أعمال السائل التى يستحق عليها الجزاء ولا رابطة تربطها بإجابة سؤاله .

(أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله أو تأتيهم الساعة بغتة وهم لايشعرون؟) أى أفأمن هؤلاء الذين يؤمنون بالله ربهم ويشركون به فى عبادته غيره ، أن تأتيهم عقوبة تغشاهم وتغمرهم ، أو تأتيهم الساعة فجأة حيث لا يتوقعون ، وهم مقيمون على شركهم ، وكفرهم بربهم ، فيخلدهم فى نار جهنم .

والآية كقوله «أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللهُ بِهِمُ الْأَرْضَ؟ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ . أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ ؟ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ . أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ ؟ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ » .

وقوله « أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ؟ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ؟ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ؟ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ » .

وجاء فى الصحيحين عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال «ولتقومنّ الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه ، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لِقْحَتِه ( الناقة ذات الدّر ) فلا يطعَمُه ، ولتقومن الساعة وقد رفع أحدكم أكلته ( لقمته ) إلى فيه فلا يطعمها » والمراد من كل هذا أنها تبغت الناس وهم منهمكون فى أمور معايشهم فلا يشعرون إلا وقد أتتهم .

والحكمة فى إبهام وقتها أن الفائدة لاتتم إلا بذلك ، ليخشى أهل كل زمان إتيانها فى هذا الوقت ، فيحملهم الخوف على مراقبة الله تعالى فى أعمالهم فيلتزموا الحق ويتحروا الخير ويتقوا الشرور والمعاصى .

---

قُلْ هٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٨) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ، أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ؟ (١٠٩)

## المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه أن أكثر الناس لايفكرون فيما فى السموات والأرض من آيات، ولا يعتبرون بما فيها من علامات، تدل على أن الله هو الواحد الأحد ، الفرد

الصمد - أمر رسوله أن يخبر الناس أن طريقه هى الدعوة إلى توحيد الله و إخلاص العبادة له وحده يدعو بها هو ومن اتبعه على بصيرة و برهان .

## الإيضاح

(قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى) أى قل أيها الرسول: هذه الدعوة التى أدعو إليها ، والطريقة التى أنا عليها ، من توحيد الله و إخلاص العبادة له دون الأوثان والأصنام هى سنتى ومنهاجى ، وأنا على يقين مما أدعو إليه ولدىّ الحجة والبرهان على ما أقول، وكذلك يدعو إليها أيضا من اتبعنى وآمن بى وصدقنى.

والآية كقوله : « ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ » .

( وسبحان الله ) أى وأنزه الله وأعظمه من أن يكون له شريك فى ملكه ، أو أن يكون هناك معبود سواه ، تعالى عن ذلك علوا كبيرا : « تُسَبِّحُ لَهُ السَّمٰوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلٰكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً » .

( وما أنا من المشركين ) أى وأنا برىء من أهل الشرك به لست منهم ولا هم منى .

وفى قوله : ( على بصيرة ) إيماء إلى أن هذا الدين الحنيف لا يطلب التسليم بنظرياته ومعتقداته بحكايتها فحسب ، ولكنه دين حجة و برهان ، فقد ذكر مذاهب المخالفين وكرّ عليها بالحجة ، وخاطب العقل ، واستنهض الفكر ، وعرض نظام الأكوان ، وما فيها من الإحكام والإتقان ، على أنظار العقول وطالبها بالإمعان فيها، لتصل بذلك إلى اليقين بصحة ما ادعاه ودعا إليه .

نقل البغوى عن ابن عباس فى تفسير قوله : « وَمَنِ اتَّبَعَنِى » يعنى أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كانوا على أحسن طريقة ، وأقصد هداية ، معدن العلم ، وكنز الإيمان ، وجند الرحمن ، وعن ابن مسعود . أولئك أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم

كانوا أفضل هذه الأمة ، وأبرها قلوبا ، وأعمقها علما ، وأقلها تكلفا ، اختارهم الله لصحبة نبيه ، ولإقامة دينه ، فاعرفوا لهم فضلهم ، واتبعوهم على إثرهم ، وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم وسيرهم ، فإنهم كانوا على الصراط المستقيم .

وقد كان من شبه منكرى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم أن الله لو أراد إرسال رسول لبعث ملكا كما حكى عنهم سبحانه : « لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً » فرد سبحانه عليهم بقوله :

( وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم من أهل القرى ) فكيف عجبوا منك ولم يعجبوا ممن قبلك من الرسل ، ونظير هذا قوله : « وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ » وقوله : «وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ » وقوله : «قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ » الآية .

وهذه الشبهة ذكرت فى كثير من السور كالأعراف وإبراهيم والنحل والكهف والأنبياء والشعراء ، وقال الحافظ بن كثير : يخبر تعالى أنه إنما أرسل رسله من الرجال لا من النساء ، وهذا قول الجمهور كما دل عليه سياق هذه الآية الكريمة ، فالله لم يوح إلى امرأة من بنات بنى آدم وحى تشريع اهـ .

وفى قوله : ( من أهل القرى ) أى من أهل الأمصار دون البوادى إيماء إلى أن سائر البلدان تتبعهم إذا آمنوا ، ولأن أهل البادية أهل جفاء ، يرشد إلى ذلك قوله عليه السلام « من بدا جفا ، ومن اتبع الصيد غفل » .

ثم أتبع ذلك بتأنيبهم وتهديدهم على تكذيبهم بالرسول صلى الله عليه وسلم فقال:

( أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم؟) أى أفلم يسر هؤلاء المشركون من كفار قريش ممن يكذبونك ويجحدون نبوتك وينكرون ما جئتهم به من توحيد الله وإخلاص العبادة له ، فينظروا فيما وطئوا من البلاد من أوقعنا بهم من الأمم قبلهم كقوم لوط وصالح وسائر من عذبهم الله من الأمم ، وما

أحللنا بهم من بأسنا بتكذيبهم رسلنا ، وجحودهم بآياتنا ، ويعتبروا بما حل بهم .

ثم رغب فى العمل للآخرة فقال :

( ولدار الآخرة خير للذين اتقوا ) أى إن الدار الآخرة للذين آمنوا بالله ورسله واتقوا الشرك به وارتكاب الآثام والمعاصى - خير من هذه الدار للمشركين المنكرين للبعث المكذبين بالرسل والذين لاحظ لهم من هذه الحياة إلا التمتع بلذاتها .

فإن نعيمها البدنى أكمل من نعيم الدنيا ، لدوامه وثباته وخلوه عن المنغصات والآلام ، فما بالك بنعيمها الروحى من لقاء الله ورضوانه وكمال معرفته .

(أفلا تعقلون؟) هذا الفرق أيها المكذبون بالآخرة ، أما إنكم لو عقلتم ذلك لآمنتم .

ثم ذكر سبحانه تثبيتا لفؤاده عليه السلام أن العاقبة لرسله ، وأن نصره تعالى ينزل عليهم حين ضيق الحال وانتظار الفرج كما قال : « كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي » وقال : « إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا » وأن نصره يأتيهم إذا تمادى المبطلون فى تكذيبهم فقال :

---

حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١١٠) لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ، مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١) .

## شرح المفردات

الظن هنا : إما بمعنى اليقين وإما بمعنى الحسبان والتقدير ، والبأس : العقاب ، والألباب : العقول واحدها لب ، وسمى بذلك لكونه خالص ما فى الإنسان من قواه ، والعبرة : الحال التى يتوصل بها من قياس ما ليس بمشاهد بما هو بمشاهد .

# الإيضاح

( حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا ) أى وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحى إليهم من أهل القرى فدعوا من أرسلوا إليهم إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له فكذبوا بما جاءوهم به ، وردوا ما أتوا به من عند ربهم ، حتى إذا يئس الرسل من إيمانهم لانهماكهم فى الكفر وتماديهم فى الطغيان من غير وازع ، وظنت الأمم أن الرسل الذين أرسلوا إليهم قد كذبوهم فيما كانوا أخبروهم عن الله من وعده لهم النصر عليهم ــ جاءهم نصرنا .

وهذه سنة الله فى الأمم ، يرسل إليهم الرسل بالبينات ، ويؤيدهم بالمعجزات ، حتى إذا أعرضوا عن الهداية ، وعاندوا رسل ربهم ، وامتدت مدة كيدهم وعدوانهم ، واشتد البلاء على الرسل واستشعروا بالقنوط من تمادى التكذيب وتراخى النصر ــ جاءهم نصر الله فجأة ، وأخذ المكذبين العذاب بغتة ، كالطوفان الذى أغرق قوم نوح ، والريح التى أهلكت عادا قوم هود ، والصيحة التى أخذت ثمود ، والخسف الذى نزل بقرى قوم لوط وهم فيها كما قال : « أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ ، أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ » .

وفى هذا تذكير لكفار قريش بأن سنته تعالى فى عباده واحدة لاظلم فيها ولا محاباة ، وبأنهم إن لم ينيبوا إلى ربهم حل بهم من العذاب ما حل بأمثالهم من أقوام الرسل كما قال فى سورة القمر : « أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ؟» وقد نصر الله نبيه صلى الله عليه وسلم فى غزوة بدر وما بعدها من الغزوات ، وأهلك الجاحدين المعاندين من قومه .

روى البخارى بسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت لابن أختها عروة بن الزبير وهو يسألها عن قول الله تعالى : ( حتى إذا استيأس الرسل ) الآية ، هم أتباع الرسل الذين آمنوا بربهم وصدقوهم ، فطال عليهم البلاء واستأخر عليهم النصر ، حتى إذا

استيأس الرسل ممن كذبهم من قومهم ، وظنت الرسل أن أتباعهم قد كذبوهم - جاءهم نصر الله عند ذلك .

وعن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ وظنوا أنهم قد كذبوا ( مخففة ) أخرجه ابن مردويه من طريق عكرمة ، ونحوه عن ابن عباس قال : يئس الرسل أن يستجيبوا لهم وظن قومهم أن الرسل كذبوهم بما جاءوهم به جاءهم نصرنا ، ونحوه عن ابن مسعود قال حفظت عن رسول الله في سورة يوسف أنهم قد كذبوا مخففة اه .

( فنجّى من نشاء ) أى فنجى الرسل ومن آمن بهم من أقوامهم ، لأنهم على حسب ماوضع الله من تأثير الأعمال فى طهارة النفوس وزكائها - هم الذين يستحقون النجاة دون غيرهم كما قال : « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا » .

( ولا يردّ بأسنا عن القوم المجرمين ) أى ولا يمنع عقابنا و بطشنا عن القوم الذين أجرموا فكفروا بالله وكذبوا رسله ، وما أتوهم به من عند ربهم .

وقد جرت سنة الله أن يبلغ الرسل أقوامهم و يقيموا عليهم الحجة و ينذروهم سوء عاقبة الكفر والتكذيب ، فيؤمن المهتدون ، و يصر المعاندون ، فينجى الله الرسل ومن آمن من أقوامهم ويهلك المكذبين .

ولا يخفى مافى الآية من التهديد والوعيد لكفار قريش ومن على شاكلتهم من المعاصرين للنبى صلى الله عليه وسلم .

( لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ) قص الخبر : حدّث به على أصح الوجوه وأصدقها ، من قولهم قص الأثر واقتصه إذا تتبعه وأحاط به خُبْرا ، أى لقد كان فى قصص يوسف عليه السلام مع أبيه و إخوته عبرة لذوى العقول الراجحة والأفكار الثاقبة ، لأنهم هم الذين يعتبرون بعواقب الأمور التى تدل عليها أوائلها ومقدماتها ، أما الأغرار الغافلون فلا يستعملون عقولهم فى النظر والاستدلالات ، ومن ثم لا يفيدهم النصح .

وجهة الاعتبار بهذه القصة أن الذى قدر على إنجاء يوسف بعد إلقائه فى غيابة الجب و إعلاء أمره بعد وضعه فى السجن ، وتمليكه مصر بعد أن بيع بالثمن البخس ،

والتمكين له فى الأرض من بعد الإسار والحبس الطويل ، وإعزازه على من قصده بالسوء من إخوته ، وجمع شمله بأبويه وبهم بعد المدة الطويلة المدى ، والمجىء بهم من الشقة البعيدة النائية - إن الذى قدر على ذلك كله لقادر على إعزاز محمد صلى الله عليه وسلم وإعلاء كلمته ، وإظهار دينه ، فيخرجه من بين أظهركم ، ثم يظهره عليكم، ويمكن له فى البلاد ، ويؤيده بالجند والرجال ، والأتباع والأعوان ، وإن مرت به الشدائد ، وأتت دونه الأيام والحوادث .

( ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه ) أى ما كان هذا القصص حديثا يختلق ويفترى لأنه نوع أعجز حملة الأحاديث ورواة الأخبار - ممن لم يطالع الكتب ولم يخالط العلماء ، فهو دليل ظاهر ، وبرهان قاهر ، على أنه جاء بطريق الوحى والتنزيل ، ومن ثم قال ولكن تصديق الذى بين يديه أى من الكتب السماوية التى أنزلها الله قبله على أنبيائه كالتوراة والإنجيل والزبور ، أى تصديق ما عندهم من الحق فيها ، لا كل الذى عندهم ، فهو ليس بمصدق لما عندهم من خرافات فاسدة ، وأوهام باطلة ، لأنه جاء لمحوها وإزالتها ، لا لإثباتها وتصديقها .

( وتفصيل كل شىء ) من أمر الله ونهيه ، ووعده ووعيده ، وبيان ما يجب له تعالى من صفات الكمال وتنزهه عن صفات النقص ، وفيه قصص الأنبياء مع أقوامهم ، لما فيها من عبر وعظات وسائر ما بالعباد إليه حاجة .

وعلى الجملة فنى القرآن تفصيل كل شىء يحتاج إليه فى أمر الدين ، وقد أسهب فى موضع الإسهاب وأوجز حيث يكفى الإيجاز ، ففصل الحق فى العقائد بالحجج والدلائل ، وفى الفضائل والآداب وأصول الشريعة وأمهات الأحكام بما به تصلح أمور البشر وشئون الاجتماع .

( وهدى ) أى وهو هدى لمن تدبره ، وأنعم فى النظر فيه وتلاه حق تلاوته ، فهو مرشد إلى الحق وهاد إلى سبيل الرشاد وعمل الخير والصلاح ، فى الدين والدنيا .

( ورحمة لقوم يؤمنون ) أى وهو رحمة عامة للمؤمنين الذين تنفذ فيهم شرائعه فى دينهم ودنياهم .

والخاضعون لها من غير المؤمنين يكونون فى ظلها آمنين على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم ، أحرارا فى عقائدهم وعباداتهم ، مساوين للمؤمنين فى حقوقهم ومعاملاتهم ، يعيشون فى بيئة خالية من الفواحش والمنكرات التى تفسد الأخلاق وتعبث بالفضائل.

نسأل الله العظيم أن يجعلنا منهم فى الدنيا والآخرة ، وأن يحشرنا فى زمرة الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين يوم تسودّ وجوه وتبيضّ وجوه وأن يجعل خواتيمنا خير الخواتيم فى الدنيا والآخرة كما جعل خاتمة يوسف مع أبويه و إخوته كذلك .

## إجمال ما جاء فى سورة يوسف

( ١ ) قصص يوسف رؤياه على أبيه يعقوب .

( ٢ ) نهى يعقوب لولده عن قَصِّهِ قَصَصَهُ على إخوته .

( ٣ ) تدبيرهم المكيدة ليوسف و إلقائه فى غيابة الجب .

( ٤ ) ادعاؤهم أن الذئب قد أكله .

( ٥ ) عثور قافلة ذاهبة إلى مصر عليه والتقاطها له .

( ٦ ) بيعها إياه فى مصر بثمن بخس لعزيز مصر .

( ٧ ) وصية العزيز لامرأته بإكرام مثواه .

( ٨ ) مراودة المرأة له عن نفسها و إعداد الوسائل لذلك .

( ٩ ) تمنّعه من ذلك إكراما لسيده الذى أكرم مثواه .

(١٠) قدُّها لقميصه وادعاؤها عليه أنه هو الذى أراد بها الفاحشة .

(١١) شهادة شاهد من أهلها بما يجلى الحقيقة .

(١٢) افتضاح أمرها فى المدينة لدى النسوة .

(١٣) تدبيرها المكيدة لأولئك النسوة و إحكام أمرها .

(١٤) إدخاله السجن اتباعا لمشيئتها .

(١٥) تعبيره رؤيا فتيين دخلا معه السجن .
(١٦) رؤيا الملك وطلبه تعبيرها .
(١٧) إرشاد أحد الفتيين للملك عن يوسف وأنه نعم المعبّر لها .
(١٨) طلب الملك إحضاره من السجن واستخلاصه لنفسه .
(١٩) توليته رئيسا للحكومة ومهيمنا على ماليتها .
(٢٠) مجىء إخوة يوسف إليه وطلبه منهم أن يحضروا أخاهم لأبيهم .
(٢١) إرجاع البضاعة التى جاءوا بها .
(٢٢) إحضارهم أخاه إليه بعد إعطائهم الموثق لأبيهم .
(٢٣) طلب أبيهم أن يدخلوا المدينة من أبواب متعددة .
(٢٤) إخبار يوسف لأخيه عن ذات نفسه .
(٢٥) أذان المؤذن أن العير قد سرقوا .
(٢٦) قول الإخوة إن أخاه قد سرق من قبل بعد حجزه عنده .
(٢٧) طلب الإخوة من يوسف أن يأخذ أحدهم مكانه .
(٢٨) وجود غشاوة على عينى يعقوب من الحزن .
(٢٩) تعريف يوسف بنفسه لإخوته .
(٣٠) حين جاء البشير بقميص يوسف ارتد يعقوب بصيرا .
(٣١) طلب الإخوة من أبيهم أن يستغفر لهم .
(٣٢) رفع يوسف أبويه على العرش .
(٣٣) قول يوسف لأبيه هذا تأويل رؤياى من قبل .
(٣٤) دعاؤه بحسن الخاتمة .
(٣٥) فى هذا القصص إثبات لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم .
(٣٦) تحذير المشركين من نزول العذاب بهم كما حدث لمن قبلهم .
(٣٧) لم يرسل الله إلا رجالا وما أرسل ملائكة .
(٣٨) نصر الرسل بعد الاستيئاس .
(٣٩) فى قصص الرسل عبرة لأولى الألباب .